الباب الرابع

الحياة الروحية فى الكوفة

فى القرنين الأول والثانى الهجريين

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

البيئة الاجتماعية والدينية للكوفة

بنى سعد بن أبى وقاص الكوفة فى عام ١٧ من الهجرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب — على أطلال بابل القديمة لتكون معسكراً للجيش العربى ، بعد فتحه لفارس . واستقرت بها قبائل من اليمن كان جلهم من المرتدة فى أيام أبى بكر الصديق ، وبخاصة قبيلة كندة ، وعلى رأسها الأشعث بن قيس ، وليس أدل على بقايا الارتداد فى قلب الكوفة ، أن يكتشف الصحابى القديم وقارئ رسول الله عبد الله بن مسعود بقايا لعبادة مسيلمة متنبئ اليمن ، فى قلب الكوفة . كان لم يزل فى الكوفة عبادة ابن الحارث أحد بنى عامر بن حنيفة ، والمشهور بابن النواحة . وكان ابن النواحة رسول مسيلمة الكذاب إلى النبى ﷺ فى المدينة ، وأتى ابن النواحة الكوفة وأنشأ حلقة تؤمن بمسيلمة وسرعان ما نما الأمر إلى عبد الله بن مسعود ، فقتله هو وأصحابه [1] . ثم مجموعة من الفرس عرفوا باسم الحمراء ، وكانوا قد انضموا للجيش العربى فى القادسية ، ثم عاشوا فى الكوفة مع العرب حلفاء لقبيلة عبد القيس الشيعية .

وكان فى الكوفة أو على الأقل فى ضواحيها من غير المسلمين بقايا الأديان الفارسية القديمة من مانوية ومزدكية وزرادشتية ومانداثية . ثم بقايا هذه الفرقة الهامة فى تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية : الصابئة . وسيظهر أيضاً فى تاريخ حروب على ، أن النصارى حاربوا فى جيشه . كما كانت هناك بقايا اليهود ، ونحن نعلم أن التلمود نشأ فى أرض العراق ، نما وتطور فى واديها وأصبح التلمود بعد قانون اليهود ... كانت الكوفة ملتقى لهذه الثقافات كلها ، كما كانت البصرة تماماً . ولكن الخلاف بين البصرة والكوفة أن البصرة ، كما يقول الدكتور كامل الشيبى « أغلبية مضرية من عرب الشمال ، أما الكوفة فكانت أغلبيتها من اليمن ، وهذا يشرح لنا لماذا اتصفت الكوفة بالأصالة العربية ، والبصرة بالاختلاط والهجنة ، فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة ! أتاح لهم أن يتغلبوا على الآثار الواردة إلى الكوفة من الحضارات الأجنبية وأن يهضموها . أما العنصر العربى الذى نزل البصرة ، فقد كان ضعيف

(١) الدكتور محمد جابر عبد العال : حركات الشيعة المتطرفين ج ١٨٢ .

الحضارة ، فغلبت عليه الثقافة الأجنبية التى قابلته فى بيئته الجديدة (١) .

وفى الحق إن فى هذا الحكم تعميماً قاسياً . فقد كان لكل من المدينتين أصالتها بشكل خاص . فقد أخرجت لنا البصرة نماذج من الحياة الروحية والعقلية فى الإسلام ، لا نجدها لدى الكوفة ، فمن البصرة خرجت مدرسة العبادة الكبرى ، التى انقلبت إلى الزهد والتصوف ، كما خرجت مدرسة المعتزلة التى لونت الفكر الإسلامى العقلى بكثير من ألوانه . وأخرجت الكوفة الفقه ، كما أخرجت التشيع بمذاهبه المتعددة ... ولسنا هنا فى مجال المقارنة العامة بين الاثنين — وإنما نحن نريد أن نعرض فقط لنشأة الحياة الروحية فى الكوفة وأن نقارن بين هذه النشأة ونشأة نفس هذه الحياة فى البصرة لنرى هل من الممكن استخلاص نظرية عامة عن الحياة الروحية الأولى فى الإسلام ؟ إن تعدد العوامل الحضارية الإقليمية بين مختلف المدن يجعل من المتعذر وضع هذه النظرية . إن هناك عوامل عامة قد تقرب بين مختلف المدارس فى مختلف المدن : أولاها : أن المجتمع الإسلامى لم يكن مجتمعاً مغلقاً ، كانت البصرة مفتوحة لمنافذ الكوفة ومسالكها ، كما كانت الكوفة للبصرة . وكان المفكرون المسلمون سواء أكانوا فقهاء أم عبادا يتنقلون بين هذه وتلك . ثانيتهما : أن المجتمع الإسلامى شعر بنفس الغصة تجاه الحوادث القاسية اجتماعية كانت أم سياسية التى هزت ضمائره ، الثالثة : أن المؤثرات الأجنبية التى كانت تحيط بالبصرة ، كانت هى هى نفسها التى تحيط بالكوفة ، ثم بالشام . حقًّا : إن اختلاف المزاج العقلى قد ينتج اختلافاً محليًّا ، ولكن ليس إلى الحد الذى تختلف فيه النظرية العامة . كان بناء الحضارة الإسلامية بناء واحداً متكاملاً ، شارك فيه المجتمع الإسلامى — كل من ناحيته بلبنة ، والمؤثرات الأجنبية التى أطلت على البصرة ، أطلت هى هى نفسها على الكوفة . ووقفت منها البصرة موقف المعاداة ، كما وقفت الكوفة . حاربت البصرة بالعقل ، وحاربت الكوفة بالفقه . وفى موقف العبادة أو موقف الروح — بكى البصريون ، كما بكى الكوفيون . وتغنت البصرة بالحب ، وأتى سفيان الثورى ، فاستمع إليه ، ولم يبك ، بل أنس وطرب . وشارك كل منهما فى وضع أسس الروح ، وتكامل العمل ... حيث تلقته بغداد فيما بعد : وسنعرض الآن لنشأة هذه الحياة الروحية الأولى فى الكوفة .

١ — أثر عبد الله بن مسعود فى الحياة الروحية للكوفة :

ولعل نشأة هذه الحياة إنما يعود إلى حياتها الأولى — حين أرسل عمر بن الخطاب « عبد الله بن

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

مسعود « القارئ الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى قضاءها وبيت مالها ، وليعلم أهلها القرآن ، كما أرسل أبا موسى الأشعرى إلى البصرة . وقد تكلمت من قبل عن عبد الله بن مسعود ، والجانب الروحى الخالص فيه . وأود أن أوجه الأنظار إلى أن تلميذى الدكتور عبده الراجحى يقوم ببحث شامل عن الجوانب المتعددة لحياة عبد الله بن مسعود وأفكاره وآرائه وقراءته وعبادته . ونرجو أن يظهر هذا البحث قريباً .

ولقد كان لعبد الله بن مسعود فى نشأة الحياة الروحية وتطورها فى الكوفة المكان الأول . كان لا بد لقارئ القرآن الأول ، أن ينشئ حلقة قرآنية ، فتكونت طائفة القراء فى الكوفة ، كما تكونت طائفة القراء فى البصرة . وستنشأ العبادة والزهد فى هذه الطائفة ، كما نشأت فى نفس هذه الطائفة فى البصرة . وسيخرج من هذه الطائفة ، فريق الزهاد من الخوارج . وسينشئون مدرسة زاهدة من أكبر مدارس الزهد فى الإسلام . ولكن الأثر البالغ لعبد الله بن مسعود فى الكوفة هو ما نبحثه نحن . وحين أرسله عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة هو وعمار بن ياسر كتب فى خطابه إليهم « قد بعثت إليكم عماراً أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من أهل بدر ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما . وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » [١] وقام عبد الله بن مسعود — كما قلت — بدور المعلم الروحى الكبير فى الكوفة . وكان يجمع حوله التلاميذ يقرأون عليه القرآن ويقص لنا تلميذه الكبير علقمة قصة قراءته القرآن هو ومجموعة من التابعين عليه [٢] . واختلف عبد الله بن مسعود مع عثمان . وأمره عثمان بأن يترك مهجره الكوفة وأن يعود إلى المدينة . وطلب منه أهل الكوفة أن يبقى وقالوا له : أقم فلا تخرج ، ونحن نمنعك أن يصل إليك شىء تكرهه . فقال : إن له على طاعة ، وإنها ستكون أمور وفتن ، لا أحب أن أكون أول من فتحها [٣] ثم ذهب إلى المدينة . ومات بها . وحين أتى على إلى الكوفة . أتاه نفر من أصحاب عبدالله بن مسعود وسألهم عنه فمدحوه أشد المدح . فأجاب على « وأنا أقول فيه — مثل الذى قالوا وأفضل قرأ القرآن وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فقيه فى الدين عالم فى السنة » [٤] وهذا يدل على ما تركه الرجل من أثر كبير فى الكوفة . فلقد أنشأ طائفة القراء ، وقد أجمعت المصادر أيضاً على أنه من كبار المتهجدين من أصحاب محمد ، كما كان من الخائفين والبكائين . وبهذا قد زرع البكاء فى أعماق الكوفة . وسيتطور البكاء بعده ، وسيتصل بمصدر

---

(١) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣٣٨ .

(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٥٠ .

(٤) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٥٢ .

آخر– هو البكاء الشيعى ، على عترة آل البيت ، وسينتشر تلامذة عبد الله بن مسعود فى أعماق الكوفة ، بل نجد أثره فى عابد من كبار العابدين فيها– وهو معضد بن يزيد العجلى– وسينهاه عبد الله ابن مسعود عن التعبد فى الجبانات ، ويعتبر هذا النوع من التعبد بدعة .

وفى إيجاز كان لعبد الله بن مسعود الأثر الكبير فى نشأة الحياة الروحية فى الكوفة ، ومن العجب أن نرى باحثا ممتازاً كالدكتور كامل الشيبى لا يذكره فى بحثه عن الزهد فى الكوفة .

٢– أثر سلمان الفارسى فى تطوير الزهد والتصوف فى الكوفة :

ثم نرى شخصية صحابية أخرى ، كان لها أيضاً أثر كبير فى حياة الروح فى الكوفة وهى شخصية سلمان الفارسى . ونحن نعلم أنه كان لسلمان صورتان ، صورة حقيقية وصورة أسطورية [1] .

أما الصورة الأولى : فهى صورة السائح الفارسى ، ينتقل من مكان إلى مكان باحثاً عن الحقيقة ، متنقلا بين الأديان فمن ما نويته أو مزدكيته الأولى إلى المسيحية ، ثم من المسيحية ، وبعد رحلات متعددة ، يقف هذا الناسك الفارسى على مشارف المدينة ، مميزاً فى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات النبوة وعلاماتها . وكان عدد من الرهبان النساك الذين قابلهم فى رحلاته قد كشفوا له عن هذه العلامات وأخبروه أنها فى كتبهم القديمة ، وأن عهد هذه النبوة قد أطل . ولقد ظن سلمان أن فى المدينة نهاية حجه الروحى ، وحقًّا ما لبث الرجل أن دشن بكلمات من الرسول «سلمان منا أهل البيت» ولهذا دخل فى الإطار الروحى للأسرة النبوية . ثم قبض الرسول ، وبدأت غزوات المسلمين . وكان من الواضح أن يسير سلمان مع الجيش الإسلامى الزاحف إلى فارس . ولا شك أن الرجل كان يشعر أنه ماض فى سياحاته لهداية بنى أمته ، وأن يقودها إلى طريق الحقيقة الذى نشده والذى وجده فى الإسلام ، وكان سلمان وحذيفة بن اليمان ممن تخيرا موضع الكوفة ، وفى الكوفة نزل أحلافه من بنى عبد القيس ، كما اختط للمحمرة من الفرس معسكراً فى جوار بنى عبد القيس ، ويرى المؤرخون أن هذا كان من عمل سلمان . على أية حال ترك سلمان تعاليمه الزاهدة ، كما ترك آثار محبته فى وجوه بنى عبد القيس من بنى صوحان– زيد وشيخان وصعصعة . . . ثم استقر سلمان فى المدائن– أميراً لها . وأصبحت المدائن قبلة للمسلمين يأتون سلمان «ابن الإسلام» «صاحب الرسول» و «سابق الفرس» بل أحد آل البيت يلتمسون حكمته ، ويرون مثال زهده . وقد صور هذا العلم وهذه الحكمة على بن أبى طالب حين ذكر عنه بعد ذلك «من لكم بمثل لقمان الحكيم . ذاك امرؤ منا وإلينا ، أهل البيت ، أدرك العلم

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٨٥ والذهبى : سير أعلام ج ١ ص ٣٦٣ .

الأول والعلم الآخر ، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر ، بحر لا ينزف [١] » . بل إن سلمان نفسه يتكلم عن علمه الخاص ويقول : لو حدثتهم بكل ما أعلم لقالوا رحم الله قاتل سلمان [٢] ثم نراه يكتب إلى أبى الدرداء حين طلب منه هذا الأخير أن يأتى إليه فى بيت المقدس « هلم إلى الأرض المقدسة » فكتب سلمان إليه يقول : « إن الأرض لا تقدس أحداً ، وإنما يقدس المرء عمله [٣] » . ويقول سلمان إنه تعلم هذا من « علجة » أى مولاة فارسية فى المدائن ، فقد كان يلتمس مكاناً طاهراً يصلى فيه . فقالت له هذه الفارسية : التمس قلبا طاهراً ، وصل حيث شئت [٤] » . أما معيشته فقد كانت معيشة الزهاد العباد ، وكان يسير فى المدائن فتسجد له العجم ، فينكس رأسه ويقول « خشعت لله . خشعت لله [٥] » وكان يردد « أوصانى خليلى أن لا يكون متاعى من الدنيا إلا كزاد الراكب [٦] » وكان يردد « ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى : مؤمل دنيا ، والموت يطلبه ، وغافل ، وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه لا يدرى : أساخط رب العباد العالمين عنه أم راض عنه . وثلاث أحزننى حتى أبكينى : فراق محمد وحزبه ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى ربى عز وجل ، ولا أدرى إلى جنة أو إلى نار » . وقد رأينا هذه النعمة لدى عباد البصرة ، كما سنراها لدى عباد الكوفة . أثر سلمان فى أعماق مدرسة الحسن البصرى ، وروى عنه الحسن كما قلنا ، كما روى عنه ثابت البنانى ، وعامر ابن عبد الله . كما روى عنه عباد الشيعة وزهادهم فى الكوفة .

وبعد : فقد ترك سلمان آثاراً كبيرة فى عباد المسلمين : سواء أكانوا من السنة أم من الشيعة ، وذلك حين انقسم المسلمون إلى هذين الفريقين من بعده وقد زرع فى البصرة ، كما زرع فى الكوفة آثار زهده . وكان من أكبر التلاميذ من العباد زيد بن صوحان . وقد ذكرنا من قبل أن زيدا أول من بنى دويرة للعباد فى البصرة ، وقد روى الحسن البصرى عددا من الأحاديث مسندة إلى سلمان [٧] . أما فى الكوفة فقد كان أثره فى تلميذه الكبير صعصعة بن صوحان ، كما التف حوله مجموعة من التابعين من كندة وعبد القيس ، وبنى عجل .

أما الصورة الأخرى صورة « سلمان » الأسطورة . فقد تتبعها ماسينيون فى مقالته « سلمان

---

(١) نفس المصدر : ج ١ ص ١٨٧ والذهبى : سير أعلام النبلاء ص ٣٩٤ .
(٢) الذهبى : سير ج ١ ص ٣٩٥ .
(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٣٩٩ .
(٤) الذهبى : سير ج ١ ص ٤٠١ .
(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٦ .
(٦) أبو نعيم الحلية ج ١ ص ١٨٦ .
(٧) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٩٦ .

الفارسي والبواكير الأولى للحياة الروحية فى إيران» ، دخل سلمان الأسطورة فى عقائد الشيعة الغلاة ، ويمثل هؤلاء الغلاة من الشيعة نوعاً من التصوف الفلسفى لا يمثل التصوف الإسلامى الحقيقى سواء عند أهل السنة أو الشيعة المقتصدين. ففسر وصف على بن أبى طالب لعلم سلمان تفسيراً غنوصيًّا ، لم يعرفه على ولم يقصده سلمان . ومن الأمثلة على هذا : العلم الأول والعلم الآخر – فسرت على أنها «الماضى + المستقبل أو تنزيل + تأويل أو علم محمد وعلى «وبحر لا ينفد» تشرح بما يوحى بأن سلمان يهيمن على سبعة نقباء . . . أو سلسل يمنح الحكمة ويؤتى البرهان[1] . بل إن ماسينيون يذهب إلى أن صعصعة بن صوحان وهو أحد الشيعة الأوائل ومن كبار عبادهم وتلميذ أمين لسلمان «قال منذ سنة ٣٣ هـأمام معاوية بالنظرية الشيعية التى تجعل من إمامة آدم وإمامة على (العين ، الصامت) شيئاً واحدا فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام على الحقيقى فى ذلك الحين ، وتلك أيضاً ندخل فى باب أسطورة سلمان . وقد كان صعصعة بن صوحان من عباد المسلمين الكبار ، ومن أتباع على المخلصين ، ولم يذهب أبداً إلى هذه الصورة الغنوصية التى يستخرجها خيال ماسينيون من النصوص ، ولكن من المهم أن نذكر أن قصة سلمان الأسطورية كانت ذات أثر عميق فى نشأة الحياة الروحية لدى عباد المسلمين المعتدلين سواء أكانوا سنة أم شيعة . ثم استخدمت ببراعة نادرة لدى الغنوصيين القائمين من غلاة الشيعة . وأضفى على سلمان فكرة السين ، النموذج الأول للأسباب ، الروابط الخارقة التى يمكن أن تربط بين السماء والأرض ، سبب الشد والتلقين ، الباب الذى يدخل منه النور الشعشعانى والقدرة التى تمنح الوجود . . . أضاف الغلاة من الخطابية والإسماعيلية والنصيرية والدروز وغيرهم كل هذه الصفات وهذه الأسماء إلى سلمان ، ومن غلاة الشيعة دخلت فى أعماق التصوف الفلسفى ، والتصوف الإشراقى ، ولكنها لا تصور أبداً حقيقة سلمان ، ولا حقيقة أتباعه الحقيقيين من السنة والشيعة المقتصدة . وقد اعتبروه الأولون صاحب رسول الله ، وأحد أهل البيت ممن أحبوا عليًّا أشد الحب ، ولكنه عمل لعمر أميراً .وأضفى بحياته وزهده وعلمه على حياة الروح الأولى نغمات رائعة ، واعتبره الآخرون أحد أركان الشيعة الكبار الذين أرسوا حقيقة على فى الإمامة ، ثم كان له علم الأولين والآخرين ، العلم الحقيقى بالأديان السابقة ، ثم العلم الشامل بالإسلام . ولم يشك علماء أهل السنة أنفسهم فى أنه كان لسلمان مكان كبير فى العلم .

ولكن أهل السنة فهموا من علمه معنى الفقه . أما الشيعة الإمامية ، ثم الاثنى عشرية من بعدها فإنها أولت النصوص عن سلمان تأويلا خاصًّا ، وبخاصة فى موقفه من المباهلة ، ولكنها لم تذهب أبداً

---

(١) الدكتور بدوى : شخصيات قلقة فى الإسلام ص ١٨ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٩ .

إلى المدى الذى ذهب إليه الإسماعيلية ، أو كما صوره الشلمغانى فى كتاب المباهلة ، صورة أسطورية تمثل سلمان – فى قمة البهاء الإلهى ، عاليا على أصحاب الكساء ، وعلى وفد نجران ، ويستنتج ماسينيون من هذا نتائج خاطئة . . . إن سلمان يمثل بهاء المسيح أو صورة متجددة له فى قلب مدينة الرسول [١] . كان هذا المستشرق الكبير يحمل النصوص مالا تحتمل ، ويصورها كما يريد . ويبترها لتحقيق « النزعة الروحية الكاثوليكية » التى سيطرت عليه . فأضاع لنا الصورة الحقيقية لأثر سلمان فى تطور الحياة الروحية الإسلامية ، وذلك بالرغم من النصوص الممتازة التى قدمها لنا . كان لسلمان بلا شك صورتان : صورة تاريخية حقيقية دخل بها فى سلاسل الصوفية الممثلين للإسلام من سنة وشيعة إمامية ، كما كانت له صورة غنوصية لدى غلاة الشيعة – كما قلت ، وقد دخلت هذه الصورة فى سلاسل صوفية الحلول ووحدة الوجود ونحن نعلم أن هذا التصوف الفلسفى إنما كان فى دوائر قليلة ، ولكن لم تكن صورة سلمان فى سلاسل هؤلاء الصوفية الآخرين ذات صبغة مسيحية ، بقدر ما كانت ذات صبغة غنوصية ، إن ما أود أن أنتهى إليه من هذا العرض الموجز لحياة سلمان وأفكاره أنه كان لحياة هذا الفارسى السائح ، الباحث عن الحقيقة آثار صارخة فى الكوفة والمدائن ، وأنه ألقى فى حياة الكوفيين والمدائنيين بقيم فى العبادة ، كما أنه وضع للفرس الذين عاشوا حوله فى المدائن والكوفة مثلا عليا ، آمن بها عباد السنة على طريقتهم ، كما آمن بها عباد الشيعة أيضاً على طريقتهم .

٣ – أثر حذيفة بن اليمان فى الكوفة :

أما الشخصية الهامة الثالثة من الصحابة فى حياة الكوفة الروحية ، فهى شخصية حذيفة بن اليمان . وقد سبق أن أشرت إلى حذيفة كواحد من رواد الروح من الصحابة . وذكرت أن العلامة العراقى الممتاز الدكتور كامل الشيبى قد قدم لنا فى كتابه « الصلة بين التصوف والتشيع » عرضاً رائعاً عن حذيفة بن اليمان كركن من أركان الشيعة وأثره – كشيعى – فى التصوف [٢] . ولكننى أحاول هنا أن ألقى نظرة موضوعية عن حذيفة بن اليمان وعن أثره فى عباد البصرة وعباد الكوفة معاً .

عرف حذيفة بأنه من « نجباء أصحاب محمد ﷺ » ، بل يصفه الذهبى وهو المحدث العتيد بأنه « هو صاحب السر [٣] » وقد أجمع مؤرخو الصحابة على أن رسول الله ﷺ قد ألقى إليه بأسرار الكائنات إلى يوم القيامة [٤] » وسيثير هذا – وكما رأى الدكتور الشيبى بحق فكرة العلم الباطن ، والعلوم

---

(١) الدكتور بدوى : شخصيات ص ١٧٧ .

(٢) الدكتور كامل الشيبى الصلة : ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢٦٣ .

السرية . وأن هذه العلوم قد أودعها الرسول بعض صحابته ، وبالذات الصحابة من عترته النبوية ، و(على) على رأسهم ، ثم نسب إلى حذيفة علم معرفة القلوب . . . وهو يقول نفسه «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى» ، وقد قصد بالشر هنا معنيين : المعنى الأول نفاق القلوب وتغيرها . ولذلك قيل : إن الرسول قد أسر إليه بمعانى النفاق ، وتقلبات القلوب فيه وأسماء المنافقين . والمعنى الثانى : الفتنة : وأنها ستقبل على المسلمين امتحاناً لهم ، وستتغير قلوب المسلمين ، وستنكت النفاق فى قلوبهم . . . وقد فتح هذا للصوفية من بعده فكرة «رقيق الرياء» وكيف يتخلصون من نفاق القلوب وريائها ، وكيف يجاهدون تحولاتها ومداهناتها . . . وكان حذيفة يحدث فى المدائن والكوفة عن الفتنة وإقبالها فيقول «إن للفتنة وقفات وبغتات – فمن استطاع أن يموت فى وقفاتها ، فليفعل» ويكرر ثانية «إن الفتنة تعرض على القلوب ، فأى قلب أشربها ، نكتت فيه نكتة سوداء ، فإن أنكرها ، نكتت فيه نكتة بيضاء . فمن أحب منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا : فلينظر . فإن كان يرى حراماً ما كان يراه حلالا ، أو يرى حلالا ما كان يراه حراماً ، فقد أصابته الفتنة» . فلما قتل عثمان – وأقبل عليه الناس يقولون له : إن الفتنة وقعت ، فحدثنا ما سمعته» فأجاب «أو لم يأتكم اليقين . . . كتاب الله عز وجل» . ومات حذيفة قبل أن تستعر أوار الفتنة ، وهو يردد «حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . أليس بعدى ما أعلم . الحمد لله الذى سبق بى الفتنة ، قادتها وعلوجها» وقد أجمعت المصادر أيضاً على أن حذيفة عاش فى المدائن وفى الكوفة عيشة الفقراء الزاهدين ، بل دخل المدائن أميراً عليها ، وهو راكب على حمار وهو سادل رجليه من جانب ، وفى يده رغيف وفى الأخرى عرق . وخرج إليه أمراء البلدة من العجم والعرب ، فرأوه يدخل المدينة ، وهو على ذلك الحال حال ركوب الأنبياء ، كما تقول المصادر[1] .

تلك هى صورة موجزة لحياة حذيفة وتميزه عن غيره من صحابة النبى . فما هى آثاره فى مجرى الحياة الروحية فى الإسلام بعده ، وبخاصة فى البصرة وفى الكوفة وفى المدائن .

أما فى البصرة فقد ترك فيها ثلاثة من الآثار الهامة : الأثر الأول – وهو عظاته المتعددة فى اتقاء الفتنة ، وتحديثه عنها ، وأنها كائنة ، وأن على القراء اتقاءها . وقد فعل هذا عباد البصرة وقراؤها . وقد وصلت إليهم بلا شك أحاديثه المتعددة ، والتى جمعها لنا أبو نعيم وابن الجوزى والذهبى ، والتى تدعو المسلمين إلى تجنب الفتنة قادتها وعلوجها ، خيرها وشرها . أما الأثر الثانى : فهو العلم الباطنى ، أو العلم اللدنى على وجه الإجمال ، وقد وضع الصوفية فيما بعد : سلسلة من سلاسل التصوف – يظهر فيها حذيفة بن اليمان بين الرسول ﷺ والحسن البصرى وليس ثمت صلة تاريخية بين حذيفة والحسن .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٧٤ وابن الجوزى : صفة ج ١ ص ٢٥١ والذهبى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

ولكن بالرغم من هذا نسب الصوفية إلى عبد الواحد بن زيد : أنه سأل الحسن البصرى عن علم الباطن : فقال : هو سر من سرى . أجعله فى قلب عبدى ، لا يقف عليه أحد من خلقى [١] » والحديث منحول . ولم يأخذ الحسن البصرى عن حذيفة ولم يعاصره . ولكن فيه دلالة على أن أخبار حذيفة كانت متواترة بين عباد البصرة . أما الأثر الثالث : فهو البكاء . وقد عرف عن حذيفة البكاء . وقد ذكر الأعمش أن حذيفة كان يبكى فى صلاته وكان يطلب من جالسيه أن لا يعلموا بهذا أحداً [٢] . وانتشر البكاء فى البصرة ، كما انتشر فى الكوفة .

أما فى الكوفة : فقد أثر حذيفة فيها أكبر الآثار ، حذيفة الحقيقى وحذيفة الأسطورة . إن الكوفة فعلا لم تستمع إليه ، وهو يطلب إليها اتقاء الفتنة . وهو يعلم أنه لا مناص منها . ولكن فكرة العلم الباطنى الذى حمله أو حمله إياه الناس ، فقد أثر فى عباد الكوفة من أهل السنة ، كما أثرت أيضاً فكرة « رقيق الرياء » فيهم . وسيرددها سفيان الثورى ، وإن كان سينسبها أيضاً إلى شخصية غامضة هى شخصية أبى هاشم الكوفى .

أما إذا انتقلنا إلى حذيفة الأسطورة ، فسنرى أثره الكبير أيضاً فى عباد الكوفة من الشيعة . فوصلوا بين علمه السرى ، وعلم على ، وأن علمه الخاص هذا جزء من العلم الذى قال على بن أبى طالب فيه « علمنى رسول الله ﷺ سبعين بابا من العلم ، لم يعلم ذلك أحدا غيرى [٣] » فحذيفة إذن موصول بعلى ، علاوة على مؤاخاة الرسول له بعمار ، ركن الشيعة الكبير . وقد تطور عن هذا العلم السرى المنسوب لحذيفة نظرية المعرفة عند الصوفية . يقول الدكتور كامل الشيبى « والواقع أن صلة حذيفة بالتصوف وثيقة ، لأنه السابقة الخطيرة فى إمكان اطلاع غير الرسل وغير أوصيائهم – كما عند الشيعة – على أسرار لا يتاح الاطلاع عليها إلا لذوى الاستعداد الروحى الخاص . وقد أدخل المتصوفة هذه العلوم فى طريقهم ، وسرعان ما صنعوا حديثاً رفعوه إلى الله عز وجل وكان من سلسلة سنده حذيفة بن اليمان ، صاحب السر ، فكان بذلك أول شيعى يأخذ منه الصوفية نظرية المعرفة عندهم [٤] » ولا شك أن نظرية المعرفة عند الصوفية قد نشأت عن عوامل أخرى متعددة ، وأن علم حذيفة الخاص يختلف فى طبيعته عن طبيعة هذه النظرية عندهم ، ولكن الصوفية قد حاولوا أن ينسبوا نظرياتهم لمجموعة من الصحابة ، كان من أبرزهم حذيفة بن اليمان . ثم تظهر صورة حذيفة

---

(١) الكلاباذى : التعرف ص ٥٩ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٤٣ وانظر أيضاً السراج : اللمع ص ١٩ .

(٤) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ١ ص ٤٥ .

الأسطورة ، صاحب السر ، فى رشيد الهجرى صاحب على ، فبينما كان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبى ، وكان حذيفة يعرف النفاق وأهله ، كان رشيد الهجرى صاحب سر على يعرف الشهداء ، ومتى وكيف يموتون . فهذا صاحب علم القلوب ونفاقها ، وذلك صاحب علم البلايا والمنايا وأصحابها [1] .

٤ – على بن أبى طالب – والزهد والتصوف فى الكوفة :

ويأتى «على بن أبى طالب» إلى الكوفة ، ربانى الأمة ، وصاحب الأسرار جميعها فى نظر الصوفية ، ورأس سلاسلهم ، وصاحب الوصية والعلوم المكنوزة ، ويؤثر فى صوفية الكوفة ، السنيين منهم والشيعة . كما يؤثر فى عباد البصرة ، بل فى عباد العالم الإسلامى جميعاً ، ثم ينتقل أثره الكبير إلى الزهاد ، كما ينتقل أثره إلى الصوفية . وقد سبق أن عرضنا لنماذج من حياته وفكره . فلا داعى لتكرارها هنا ، وإنما نقول فقط ، إن أثره الأكبر كان فى الكوفة حيث عاش الفترة الأخيرة من حياته . أو بمعنى أدق إن أثره الكبير فى الحياة الروحية فى الإسلام من بعده ، إنما شع من الكوفة ، وانتقل إلى بقية أرجاء العالم الإسلامى . ونعود إلى الكوفة فنقول : إن حياة على فيها وموته أدى إلى نوعين أو نسقين من الحياة الروحية ، نسق سنى ، ونسق شيعى مقتصد ، وليس بين النسقين كبير خلاف ، ونسق شيعى غال .

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

الفصل الثانى

مدرسة الكوفة السنية

جاء عبد الله بن مسعود – كما قلت – إلى الكوفة ، وزرع بها زرعاً كبيراً ما لبث أن أثمر غرسه ونبته ، أنشأ ابن مسعود طائفة القراء ، وهى تقابل تماماً الحلقة القرآنية الأولى التى أنشأها أبو موسى الأشعرى فى البصرة وسنرى فيها خصائص مدرسة البصرة ، مع اختلافات يسيرة . شغلت البصرة بالتعبد القرآنى ، ولم تشغل برواية الحديث ، واشتهرت بالبكائين . بينما ساد الكوفة أيضاً نفس التعبد ، مع عناية بالحديث ، ولعل عناية حلقات الكوفة بالحديث كان لخدمة الفقه الذى اشتهرت به الكوفة ، غير أن ظاهرة البكاء ، تتضح بالكوفة أيضاً ، كما اتضحت بالبصرة . غير أن بكاء البصرة ، كان كما قلت صارخاً ، بكاء عجوز شمطاء تبكى خريف الحياة . أما هنا فى الكوفة ، فكانت العروس المجلوة تبكى بكاء الحسرة والندم على شباب الحياة ، على شبابها الذى لم يعمر طويلا ، على ظلم القدر لها ، ثم سيتطور إلى بكاء عميق على أبناء فاطمة الذين سقطوا بجوارها ، ولقد لفظوا أنفسهم فى سبيل القرآن الذى يقرأونه ويتدبرونه . كان بكاء الكوفة هادئاً ، مكظوما فى خفية عن أعين الحكام ، لأنه تمثل فى أشخاص ربانيين ، بينما كان بكاء البصرة مسموعاً عالياً منطلقاً ،لا يتمثل فى أشخاص ولا يتحدد فى ذوات معينة .

وسنحاول أن نعرض لنماذج من هؤلاء العباد الأوائل فى الكوفة من مدرسة عبد الله بن مسعود . وقد ذكرنا من قبل هذا الأثر الذى يقرر أن الزهد انتهى إلى ثمانية من التابعين : البعض منهم ، من أهل البصرة ، وقد عرضنا لهم من قبل ، والبعض منهم من أهل الكوفة ، والقلائل منهم ، بل هو واحد فقط من أهل الشام [1] .

١ – مسروق بن عبد الرحمن الهمدانى الكوفى : راهب الكوفة :

إن أول صورة لعباد الكوفة من تلامذة عبد الله بن مسعود ، هى صورة مسروق بن عبد الرحمن الهمدانى الكوفى (المتوفى عام ٦٣ هـ) . وقد اعتبر مسروق أحد الزهاد الثمانية الأوائل من التابعين . وكان الكوفيون لا يقدمون أحداً عليه من أصحاب عبد الله بن مسعود [2] . وكان مسروق يمثل العبادة

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ١٣ .

التقليدية المأثورة عن الصحابة . فعاش عيشة زاهدة ، ويدعوالناس إلى الإخبات فى الصلاة ، وأن السجود هو طريق القرب إلى الله . ولذلك شبهوه بالرهبان «كان يقوم للصلاة كأنه راهب» وكان يرخى الستر بينه وبين أهله «ويقبل على صلاتهم ويخليهم ودنياهم» ويدعو إلى التعمق فى القرآن وأن منه يستنبط «علم الأولين والآخرين ، علم الدنيا والآخرة» وكره هؤلاء الذين يظهرون العجب بأعمالهم ، دون خشية من الله» كفى بالمرء جهلا أن يعجب بعمله» وكان مسروق من أوائل من تنبهوا إلى فكرة «النفس اللوامة» وسيبحثها صوفية أهل السنة من بعده وتمنى أن يغلق بابه دون الناس . فكان يردد :

ويكفيك مما أغلق الباب دونه وأرخى عليه الستر ملح وجردق

ثم يأخذ بيد ابن أخ له ، ويرتقى به إلى كناسة الكوفة . ويقول له : «ألا أريك الدنيا . هذه الدنيا أكلوها فأفنوها ، لبسوها فأبلوها ، وركبوها فأنضوها ، سفكوا فيها دماءهم ، واستعملوا فيها محارمهم ، وقطعوا منها أرحامهم» . . . همس يهمس به إلى ابن أخيه ، بعيداً عن الناس ، وهو الذى أرغم على تولى القضاء . . . وأخيراً يقول لسعيد بن جبير «يا سعيد : ما بقى شىء يرغب فيه ، إلا أن نعفر وجوهنا فى التراب» ولما احتضر بكى ، فقيل له «ما هذا الجزع ؟ قال : ما لى لا أجزع ، وإنما هى ساعة ، ولا أدرى إلى الجنة أم إلى النار[1]» .

٢ – الأسود بن يزيد أو تعذيب الجسد :

ثم نجد صورة ثانية من تلامذة عبد الله بن مسعود وهو الأسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله (المتوفى عام ٧٥ هـ) وهو أيضاً من الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد . وقد دعى أيضاً براهب من الرهبان ، ولعل هذا لأنه اعتنق فكرة «تعذيب الجسد» بل يذكر عنه أنه كان «يجهد نفسه فى الصوم والعبادة ، حتى يخضر جسده ويصفر» . وكان ابن أخيه وهو أحد كبار العباد أيضاً فى البصرة علقمة بن قيس يؤنبه على هذا ويقول له «ويحك . لم تعذب هذا الجسد» فيرد الأسود قائلا «راحة هذا الجسد أريد» أى أنه يعذبه هنا ، لكى يستعذب الراحة الأبدية فى الآخرة . وكان يردد أحياناً «إن الأمر جد ، إن الأمر جد» ولذلك فرض على نفسه صيام الأبد ، وذهبت إحدى عينيه من الصوم[2]

وبعد : فهل هناك صلة بين عبادة الأسود وبين رهبان المسيحية ، وبخاصة أنه يتخذ طريقهم فى تعذيب النفس : لا نجد أبداً أن هناك أدنى صلة ، ولا تقودنا النصوص التى بين أيدينا إلى اقتناص أثر مسيحى فى عبادته .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٩٥ – ٦٨ وابن الجوزى : ج ٣ ص ١١ – ١٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٢ – ١٠٥ وابن الجوزى صفة ج ٣ . ص ١١ .

٣-علقمة بن قيس : زين القرآن

وقد اتصلت حياة الأسود بحياة ابن أخيه علقمة بن قيس النخعى (المتوفى عام ٧٢ هـ) . وقد كان علقمة أحب تلامذة عبد الله بن مسعود إليه . وقد شبهوه بالرسول ﷺ من ناحية ، وبعبد الله ابن مسعودمن ناحية . بل اعتبر من الديانيين الذين يقرؤون القرآن ، كما اعتبر « ربانى هذه الأمة » وهى جملة أطلقت على على بن أبى طالب نفسه ، كما أطلق عليه « زين القرآن » . ويذكر المؤرخون أن عبد الله بن مسعود مر على حلقة فيها علقمة والأسود ومسروق وأصحابهم ، فوقف عليهم وقال « بأبى وأمى : العلماء : بروح الله ائتلفتم ، وكتاب الله تلوتم ، ومسجد الله عمرتم ، ورحمة الله انتظرتم ، أحبكم الله ، وأحب من أحبكم » وقال فيه عبد الله بن مسعود أيضاً « ما أقرأ شيئاً ، ولا أعلم شيئاً ، إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه » وكان علقمة ينأى عن الناس حتى عاتبه الناس على هذا « لو جلست فأقرأت القرآن وحدثتهم » فأجاب « أكره أن يوطأ عقبى ، وأن يقال هذا علقمة « ويذهب لرعى غنمه . . وكان يترك الناس يشتمونه فلا يجيب . وعلا على نزوات الحياة ، بحيث يقول لامرأته فى مرضه الأخير « تزينى واقعدى عند رأسى لعل الله أن يرزقك بعض عوادى » [١] . وقد سئل الشعبى المحدث المشهور عن علقمة أفضل أم الأسود . فقال : علقمة ، « كان الأسود رجلا حجاجاً ، وكان علقمة بطيئاً وهو يدرك السريع [٢] » .

٤-الربيع بن الخيثم : قتل النفس والصدق والصمت .

ثم نأتى إلى صورة رابعة من صور أصحاب عبد الله بن مسعود ، وهو الربيع بن خيثم . وقد اعتبر الربيع بن خيثم أحد الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد . وكان من خاصة عبد الله بن مسعود ، بحيث كان ابن مسعود لا يأذن لأحد بالدخول عليه ، إذا أتاه الربيع ، حتى يفرغ كل من صاحبه .

وكان ابن مسعود يقول له « لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك ، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين » وبهذا نرى هذا الاصطلاح القرآنى يطلق على عباد الكوفة ، ومن المرجح أنه كان يقابل مصطلح البكائين فى البصرة [٣] وقد كان الربيع أيضاً من البكائين . وقد ذكر عنه أنه كان يبكى حتى تبل لحيته دموعه ويقول « أدركنا أقواماً كنا فى جنبهم لصوصاً [٤] » وكان يقضى الليالى متهجداً باكياً .

(١) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ٩٨ - ١٠٢ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ، ١٣ ، ١٤ .
(٢) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١٠٣ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٦ شابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ٣٦ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٨ ، ١٠٩ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٦ .

فتناديه أمه «يا بنى – يا ربيع ألا تنام . فيجيبها : يا أمه – من جن عليه الليل ، وهو يخاف البيات ، حتى له أن لا ينام »

ولما بلغ أشده ، وزاد بكاؤه فى الليالى : تسأله أمه مرة ثانية : يا بنى لعلك قتلت قتيلا ، فقال : نعم يا والدة . قد قتلت قتيلا . قالت : ومن هذا القتيل يا بنى حتى نتحمل على أهله فيعفون ؟ والله لو يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعد ، لقد رحموك . يا والدة : هى نفسى [١] » لقد وضع الربيع إذن فى تاريخ المحبتين ، ثم الصوفية من بعده – فكرة قتل النفس ، وسينادى بها الحلاج فيما بعد فى أسواق بغداد .

ووضع الربيع بن خيثم أيضاً أساس فكرة «الصعق » فى الكوفة ، وقد رأيناها مراراً فى البصرة من قبل . ولكن الغريب هنا أنه حققها أمام عبد الله بن مسعود . ولم ينكر صاحب رسول الله عليه هذا . إن المصادر تذكر أن عبد الله بن مسعود خرج هو ومجموعة من أصحابه ، إلى شاطئ الفرات ، فمروا على حداد ، فأخذ عبد الله بن مسعود ينظر حديدة فى النار ونظر الربيع إليها وتمايل ليسقط . فمضى عبد الله وأصحابه سراعاً حتى أتوا على أتون على شاطئ الفرات . فلما رأى عبد الله الأتون والنار تشتعل فى جوفه ، قرأ هذه الآية «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . . . إلى قوله ثبوراً » فصعق الربيع ، فاحتمله أصحاب عبد الله بن مسعود إلى منزله ، وبقى عبد الله بن مسعود بجانبه إلى المغرب حتى أفاق ، ثم رجع إلى أهله [٢] .

ووضع الربيع أيضاً فى مجرى الحياة الروحية فى الكوفة ، فكرة الصمت وكانت الكوارث السياسية تنزل بالكوفة . كان الربيع بن الخيثم يعلم أوضار الفتنة . وحين أتى على بن أبى طالب الكوفة «أجابه جل الناس إلى المسير ، إلا أصحاب عبد الله بن مسعود ، وعبيدة السلمانى ، والربيع بن خيثم فى نحو من أربعمائة رجل من القراء . فقالوا «يا أمير المؤمنين . قد شككنا فى هذا القتال ، مع معرفتنا فضلك ، ولا غنى بك ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين ، فولنا بعض هذه الثغور ، لنقاتل عن أهله ، فولاهم ثغر قزوين والرى ، وولى عليهم الربيع بن خيثم وعقد له لواء . وكان أول لواء عقد فى الكوفة » [٣] .

فالرجل إذن اعتزل الفتنة – مع محبته لعلى ومعرفته لفضله . وحين عاد الرجل إلى الكوفة ورأى ولاة بنى أمية يتولون أعناق المسلمين لجأ إلى الصمت بحيث كان لا يصدر عنه سوى الكلمة أو الكلمتين

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٢١٤ ، ١١٥ وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٤ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١١٠ ، وابن الجوزى صفة ج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) أبو حنيفة الدينورى : الأخبار الطوال : ص ١٦٥ .

يقول سفيان الثورى : صحبنا الربيع بن خيثم عشرين سنة ، فما تكلم إلا بكلمة تصعد ، اتخذ الربيع الصمت عبادة بحيث إذا نقل إليه ناقل «إن ابن فاطمة عليها السلام قتل» أطرق الرجل واسترجع ، ثم تلا هذه الآية (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) ثم سئل عما يراه فى الأمر ، فقال «ما أقول : إلى الله إيابهم ، وعلى الله حسابهم [١]» فالرجل إذن قد لجأ إلى الصمت نقمة وكراهية فى دنيا تولاها سفهاء بنى أمية . وخرج إلى المقابر يتعبد فيها وقد كان أستاذه عبد الله بن مسعود ينهى معضد بن يزيد العجلى عن التعبد فى الجبانات . ولعل الربيع فعل هذا بعد وفاة عبد الله بن مسعود . ونزول الكوارث بالكوفة . فكان إذا جن الليل ووجد غفلة الناس . خرج إلى المقابر فقول : يا أهل المقابر كنا وكنتم [٢] ... وكان يأنس إلى الوحدة ويقول «أنا بعصافير المسجد آنس منى بأهلى» وحاول جهده أن يخفى عبادته . فكان عمله كله سرًا . وكان الرجل يأتيه وهو يقرأ . فيسكت ويغطى المصحف بثوبه وكان يحدث عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله «سيأتى على الناس زمان تحل فيه العزلة ولا يسلم لذى دين دينه . إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق . ومن جحر إلى جحر . كالطير بفراخه والثعلب بأشباله» [٣] ...وذهب إلى الأهواز مع صديق له . فنظرت إليه امرأة . فتعرضت له ودعته إلى نفسها . فبكى الشيخ . فقال له صاحبه : ما يبكيك . قال : إنها لم تطمع فى شيخين إلا رأت شيوخاً مثلنا [٤] فكان يبكى إذن ذنوب الناس . يبكى ذنوب الشيوخ التى دعتهم إلى جسدها من قبل . فقبلوا . فطمعت فى شيوخ آخرين .

ولم تكن المعانى الكبرى التى وضعها فى مجرى التصوف خلال حياته كالإخبات ، وأمانة النفس والصعق والصمت ، هى كل ما ترك هذا العابد الكبير فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية بل إنه عبر عن كثير من معانيها فى أحاديثه القليلة التى تركها لنا . فكان يردد أن خير الناس من كان منطقه ذكراً وصمته تفكراً ، ومسيره تدبراً [٥] .ويأخذ عليه الصمت كل مأخذ ويطلب منه الناس أن «يذكر الناس» فيقول «ما أنا عن نفسى براض ، فأتفرغ من ذمها إلى أن أذم الناس ، إن الناس خافوا الله فى ذنوب الناس ، وأمنوه على ذنوبهم [٦] وهذا كلام خطير فى التصوف ، ولعلنا نتذكر أن عباد البصرة شغلوا بالوعظ ، وردهم بعض العباد بل العابدات عن هذا . وكانت حيونة ورابعة تنكران على عبد الواحد بن

(١) أبو نعيم : حلية ج ٣ ص ١١١ .
(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٣ .
(٣) نفس المصدر : ج ٣ ص ٣٢ – ٣٥ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١١٦ ، ١١٨ .
(٥) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٠٦ .
(٦) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٢ وأبو نعيم : حلية ج ٢ ص ١٠٧ .

زيد وصالح المزى وعظهما وتطلبان منهما أن يشغلا بنفسيهما . وهذا ما فعله الربيع بن خيثم . ووضع الربيع بن خيثم نفسه فى مرتبة الاستسلام المطلق لإرادة الله ، فحين أصابه الفالج طلب منه أصحابه أن يتداوى : فيقول : لقد علمت أن الدواء حق ، ولكن ذكرت عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع وكانت لهم الأطباء ، فلا المداوى بقى ولا أرى المداوى ، وأهلك الناعت والمنعوت لا حاجة لى فيه[١] » ودعا الربيع للناس حتى لمن سرق دابته[٢] حتى للحجر فقد أصابه حجر فى رأسه ، فشجه ؛ فمسح الدم عن وجهه وقال : اللهم اغفر له ، فإنه لم يتعمدنى » وكان يردد لأصحابه «تدرون ما الداء والدواء والشفاء : قالوا لا قال : الداء الذنوب ، والدواء الاستغفار والشفاء أن تتوب ثم لا تعود »بل شغلته التوبة أشد شغل ، وحاول أن ينفذ خلال أحاديثه عنها إلى شغاف القلوب « اتق الله فيما علمت ، وما استوثر عليك فكله إلى عالمه ؛ لأنا عليكم فى العمد أخوف منى عليكم فى الخطأ . وما خيرتكم اليوم بخير . ولكنه خير من آخر شر منه . وما تتبعون الحق اتباعه ، وما تفرون من الناس حق فراره ، ولا كل ما أنزل على محمد ﷺ أدركتم ، ولا كل ما تقرءون تدرون ما هو . . . ثم يقول « السرائر . . . السرائر اللاتى تخفين من الناس، وهن لله تعالى بواد . التمسوا دواءهن ، وما دواؤهن إلا أن تتوب ، ثم لا تعود[٣] » ويعود ثانية إلى طلب الصمت ، ويطلب من أصحابه « أقلوا الكلام إلا بتسع : تسبيح وتكبير ، وتهليل وتحميد ، وسؤالك الخير ، وتعوذك من الشر . وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر ، وقراءة القرآن[٤] وكان يقول : إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك ، وإذا تفكرت ، فاذكر اطلاعه عليك . فإنه يقول تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وكان يطلب منهم محبة الموت ، هذا الذى لم يذوقوا قبله مثله « . . . والغائب إذا طالت غيبته وجبت محبته ، وانتظره أهله ، وأوشك أن يقدم عليهم » فإذا أصبح عليه الصباح قال « أصبحنا مذنبين نأكل أرزاقنا . وننتظر آجالنا[٥] »فلما احتضر ، بكت ابنته : فقال يا بنية : لم تبكين : قولى بشراى أتى الخير » ولم يكن الربيع يخشى الموت إذن ، بل يتطلبه ، وينتظر مجيئه . وهذا أيضاً خلاف ثان بينه وبين عباد البصرة الذين خشوا الموت أشد الخشية ، خوفاً من عذاب الله . أما فى الكوفة ، وقد رأوا عذاب البشر ، عذاب بنى أمية لهم ، فانتظروا الموت على عجل ، مرحبين به . وكأن دموع البصرة

(١) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٣٢ .
(٢) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٣٢ وأبو نعيم : حلية ح ٢ ص ٢١١ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ح ٢ ص ١٠٨ وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٣٣ .
(٤) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١٠٩ وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٣٣ .
(٥) أبو نعيم : ح ٢ ص ١٩٢ .

قد انهمرت من الباطن ، بينما دموع الكوفة . قد أهمرها الخارج ، الحياة المضنية التى عاشوها ، سوط العذاب الذى لقوه فى هذه الدنيا ، التقية التى فرضوهاعلى أنفسهم . وكان الربيع عالماً بكل ما حوله ، وما جلس مجلساً منذ تأزر وكان يقول « أخاف أن يظلم رجل فلا أنصره أويعتدى رجل على رجل ، فأكلف عليه الشهادة ولا أغض البصر ، أويقع الجاهل فلا أحمل عليه [١] . لقد كظم الرجل غيظه . واحتمل على نفسه ، إنه جلس بين أصحابه يوماً على باب داره ، فأصابه هذا الحجر الذى شج رأسه وصك وجهه ، فدعا له فقام ودخل الدار قائلاً « لقد وعظت ياربيع » وأغلق الباب ، وما رؤى فى مجلسه حتى مات [٢] .

وهكذا عاش أمير قزوين القديم ، شيخ القراء ، وأكبر أصحاب عبد الله ، فى مقام الذل ، وقد رأى الدنيا تغيرت من حوله ، وحكمها الفتية السفهاء من بنى أمية ، يتطاولون على منابر الكوفة ، ويقتلون الناس بغير الحق فعاف الناس جميعاً ، بل كانت تأتيه ابنته تقول « يا أبتاه أتذن لى ألعب » فيمنعها . . . وكان يكنس بيته بنفسه [٣] ومات فى ولاية عبيد الله بن زياد « هذا الغلام الجبان السفيه » كما دعاه معاصره الحسن البصرى فى البصرة ، هذا الذى قتل الحسين بن فاطمة ، ولم يستطع الربيع بن خيثم أن يفعل شيئاً سوى أن يسترجع ، ويغلق عليه داره ، متمنياً الموت الذى طالما أحبه وانتظره .

وبعد : فإن الكثيرين من الباحثين لم ينتهوا إلى أثر هذا العابد الكبير فى تاريخ الحياة الروحية فى الكوفة . فقد تتلمذ عليه العدد الكبير من عبادها ، أو أخذوا عنه ، وساروا سيرته . ثم تأثر بسيرته سفيان الثورى وسعيد بن جبير ، وإن كان سعيد سيموت فيما بعد — فى يوم مشئوم على يد الحجاج ، كما أثرالربيع بن خيثم فى الفضيل بن عياض وفى بشر الحافى . ولعل الفضيل قد تتلمذ عليه وقد نتساءل : هل هناك أثر خارجى فى أقوال الربيع وفى حياته . كانت المسيحية كما نعلم — حوالى الكوفة ، وأتى عدد من المسيحيين إليها ، كما كان بجوارها أيضاً المندائية والديصانية والمرقونية والمانوية . وعاش فى الكوفة عدد من اليهود . إن التأمل الباطنى فى حياة الرجل وفى أقواله لا يثبت وجود أثر خارجى فيها ، ففكرة الاعتزال والتوحد ، انبثقت عن عوامل الكوفة السياسيةوالاجتماعية ، ولا يوجد مدخل من مداخل الرهبنة المسيحية فى اعتزال الربيع ، كما أن فكرة الصمت لم تكن خارجية ، بل انبعثت من أعماق الرجل ، وقد شاهدها عبد الله بن مسعود . ولو رأى فيها ظلالا من أثر خارجى ، لأنكرها ، أما

---

(١) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ١١٦ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٣٦ .

(٣) نفس المصدر : ح ٣ ص ٣٤ .

فكرة قتل النفس ، أى مجاهدتها ومعاناتها ، حتى يتخلص الإنسان من شوائبها فقد استند فيها على النصوص القرآنية « فى النفس اللوامة والنفس المطمئنة » وبعد : فإنى أردد هنا أيضاً أن تشابه الطريقين لا يدل على تشابكهما ، اللهم إلا إذا وجدنا وثيقة تاريخية قوية ، علاوة على أننا لا نجد فيما بين أيدينا من نصوص أن الرجل قد اتصل برهبان أو وقف على صومعة – كما فعل عباد البصرة .

٥– التوابون من زهاد الكوفة :

وإذا كان عبد الله بن مسعود قد أطلق على الربيع بن خيثم لقب المخبت فإنه أطلق على أبى وائل شقيق بن سلمة الأسدى لقب التائب . . . وكما أطلق على أصحاب عبد الله فيما بعد لقب المخبتين أطلق عليهم لقب التوابين وسيذكرهم عون بن عبد الله بن عتبة ويقول « جالسوا التوابين ، فإنهم أرق الناس قلوباً » ، والتوابون [١] هنا من أصحاب عبدالله بن مسعود فكأن الكلمة قد أطلقت على مجاميع من الناس فى الكوفة لا على التوابين من الشيعة فقط . وقد كان شقيق من البكائين ، بل يكاد يكون أول البكائين الحقيقين من عباد الكوفة ، وقد قيل إنه كان يستمع النوح ويبكى . وكان إبراهيم التيمى (من كبار عباد الكوفة) يذكر فى منازل أبى وائل ، « وكان أبو وائل ينتفض انتفاض الطير» وكان ينشج فى المسجد – « كما تنشج المرأة » . . . . . وكانت أحداث الكوفة قد ألقت ظلالها على العباد ، فزادوا بكاءا ونحيباً ، وقد ذكر الحجاج يوماً عنده فقال « اللهم أطعم الحجاج من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع » ثم يتدارك خشية من الله – فيقول « إن كان ذاك أحب إليك » وكره القراء وتهافتهم على أبواب الأمراء كما كره ابنه لتوليه القضاء [٢] .

واتخذ عباد الكوفة – كما اتخذ عباد البصرة – التعبد فى الجبانات سنة لهم ، وكان أول من قام بها فى الكوفة معضد بن يزيد العجلى هو ومجموعة من أصحابه ، وقد ذهب إليهم عبد الله بن مسعود وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم . ولكن ما لبث أن لجأ العباد إلى الجبانات – وعلى رأسهم الربيع بن خيثم – كما ذكرنا .

وكان معضد يطلق أقواله فى التعبد « اللهم أشفنى من النوم باليسير» ويتمنى لوكان يعسوباً « لولا ثلاث : ظمأ الهواجر ، وطول ليل الشتاء ، ولذاذة التهجد بكتاب الله عز وجل ، ما باليت أن أكون يعسوبا » [٣] . ويختلف العابد الكوفى عمرو بن عتبة بن فرقد السلمى مع أبيه . يريد الأب من الابن

---

(١) أبو نعيم : حلية ح ٤ ص ١٠١ – ١٠٦ وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٥٦ .

(٣) أبو نعيم : حلية ح ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ . وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٢٢ .

أن يترك عبادته وأن يعينه فى عمله ، ويسأل أصدقاء الابن أن يعينوه على إقناعه بترك العبادة . . . فيقول معضد « لا تطعمهم واسجد واقترب[١] » فقال عمرو « يا أبت إنما أنا عبد ، أعمل فى فكاك رقبتى ، فدعنى » . وكان يذهب مع معضد إلى المقابر ، ويقف على القبور ويقول : « يا أهل القبور ، قد طويت الصحف ، وقد رفعت الأعمال » ثم يبكى ، ويصف بين قدميه حتى الصباح ، ثم يعود إلى المسجد ، فيشهد صلاة الصبح . وقد استشهد الصديقان سوياً فى إحدى الغزوات .

وما لبثت الإسرائيليات أن انتشرت لدى عباد الكوفة ، كما انتشرت لدى عباد البصرة . فنرى خيثمة بن عبد الرحمن بن أبى سبرة ، ومن أصحاب عبد الله بن مسعود ، يقول « كان عيسى عليه السلام يلبس الصوف ، وكان يحيى عليه السلام يلبس الوبر ، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه ، أينما جنهما الليل أويا » ثم يخلط أحاديث عيسى بالقرآن فيقول « مرت بعيسى بن مريم عليه السلام امرأةفقالت : طوبى طوبى لبطن حملك ، ولثدى أرضعك فقال عيسى « بل طوبى لمن قرأ القرآن ، واتبع ما فيه[٢] » . ويكثر عبد الله بن أبى الهذيل أيضاً من الإسرائيليات . بل إنه يورد عن موسى أنه قال « يارب خلقت خلقاً وهم عبادك ثم تحرقهم بالنار[٣] » . وستردد رابعة هذا القول فى صورة مماثلة . وكان هذا النوع من الإسرائيليات قد انتشر بين المسلمين ، تؤيد به الطوائف المختلفة منازعها .

ثم ظهرت فكرة تعذيب النفس فى الكوفة . يضع زيد بن الحارث العامى (المتوفى سنة ١٢٣ هـ) يده فى الماء البارد طيلة الليل حتى جمدت ، وكذلك كان يفعل صديقه طلحة بن عمر بن كعب (توفى عام ١١٢ هـ) وكان سعيد بن جبير يتمنى أن يقابل الله فى مسلاخ زبيد . وكان الاثنان « لا يتوسدان الفراش » . . . أخلقهما السهر وطول القيام[٤] .

ثم ظهرت طائفة التوابين — وكان من أبرز رجالها « عون بن عبد الله » وكان يدعو إلى الذكر « مجالس الذكر ، شفاء القلوب » و « ذكر الله صقال القلوب » . . . وكان عون بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود يتردد على أم الدرداء، هو وأصدقاؤه . فيقيمون مجالس الذكر عندها وكان يطلق عليه وعلى أصحابه اسم التوابين ، وقد أثر عنهم أدعية متعددة ، وكانوا أرق الناس قلوباً وكان يقول « قلب التائب بمنزلة الزجاجة ، يؤثر فيها جميع ما أصابها ، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة ، وهم إلى الرقة أقرب ،

---

(١) إبن الجوزى : صفة ح ٤ ص ١٥٦ – ١٥٨ .

(٢) أبو نعيم . حلية جـ ٤ ص ١٥٦ – ١٥٨

(٣) أبو نعيم : حلية ح ٤ ص ١١٧ – ١١٩ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٥٣ ، ٥٥ .

فداووا القلوب بالتوبة ، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة ، حتى أوفدته عليها ، وجالسوا التوابين ، فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب » وكان يكثر من البكاء « كان يحدثنا وللحيته رش بالدموع [١] » ، وكذلك كان يفعل سعيد بن جبير ، كان يبكى حتى عمش [٢] . وكان سعيد بن جبير يرنو بعينيه دائماً إلى البصرة ، وكان يرى أنهم أهل العبادة الحقة [٣] . وقد وردت بعض الأخبار عن صلات سعيد بن جبير بالرهبان وهو يقول : لقيني راهب فقال يا سعيد فى الفتنة ، يتبين من يعبد الله ممن يعبد الطاغوت[٤] . ولكن ما يلبث راهب أن يدل شرطة الحجاج على مكانه وتراه الشرطة فى صلاته فيأخذونه ودعاهم الراهب للمبيت فى الدير ، فأبى سعيد أن يدخل بيت مشرك أبداً ، وبقى الليل فى العراء ، واقترب منه أسد ، فسكن بين يديه ، ونزل الراهب من صومعته وأسلم بين يديه [٥] . وقد قتل سعيد على يد الحجاج فى مشهد مثير . أزعج عباد المسلمين جميعاً . . . وقد أعطى مثالاً لشهداء الصوفية من بعده . . . وكان مثاله – كبش إبراهيم . . . الكبش الذى فدى به إسماعيل ارتقى فى الجنة . . . وكان عليه عهد أحمر [٦] .

وقد نرى نفس الصورة فيما بعد ، لدى الحلاج . . . وهو يردد :

« تهدى الأضاحى ؛ وأهدى مهجتى دمى » .

وتكونت طائفة البكائين فى الكوفة . « كان أصحابنا البكاؤون أربعة : عبد الله بن سعيد بن أبجر المتطبب ، ومحمد بن سوقة ، ومطرف بن طريف وضرار بن مرة » وكان ضرار بن مرة قد حفر قبرا فى بيته يتعبد فيه [٧] . كما كان يلزم البعض الجبانات يعيشون فيها ، كعطوان بن عمرو التميمى [٧] . وانتشر البكاء فى الكوفة ، كما انتشر فى البصرة ، وكانوا يجتمعون فى خلواتهم يبكون : كقيس بن مسلم الجدلى (توفى عام ١٢٠ هـ) ومحمد بن حجادة ومسعر بن كدام (توفى عام ١٥٥ هـ) وكان مسعر يقول « أشتهى أن أسمع صوت باكية حزينة » وكان مسعر بن كدام يرى الحرية فى اليأس من الناس وينشد :

ألا قد فسد الدهر فأضحى حلوه مرا
وقد جربت من أهوى فقد أنكرتهم طرا
فألزم نفسك اليأس من الناس تعش حرا

(١) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٥٥ – ٥٨ وأبو نعيم : حلية ح ٤ ص ٢٧٢ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ح ص ٢٧٢ .
(٣) نفس المصدر : ح ٤ ص ٢٧٦ .
(٤) نفس المصدر : ح ٤ ص ٢٨ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ح ٤ ص ٢٩١ – ٢٩٢ .
(٦) نفس المصدر : ح ٤ ص ٢٨٣ .
(٧) إبن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ .

وسنرى الجنيد يتأثر بهذا الحديث فيما بعد : فيعرف التصوف « بأنه اليأس مما فى أيدى الخلائق » .

وقد أثر مسعر بن كدام فى شيخ زهاد الكوفة سفيان الثورى ، بل تتلمذ الثورى عليه (١) .

وفى الكوفة أيضاً خرج كرز بن وبرة ، يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر ويضربه الناس حتى يغشى عليه ، وعاش وسكن فى جرجان ، حيث تعلم « الاسم الأعظم » طلب من الله أن يعطيه إياه على أن لا يسأل به شيئاً من الدنيا (٢) وقد ظهرت فكرة الاسم الأعظم فى البصرة ، كما ستظهر فى الكوفة لدى غلاة الشيعة .

وفى مدرسة الكوفة أتى معروف الكرخى ، الصوفى البغدادى المشهور ، واستمع لوعظ ابن السماك الكوفى (المتوفى عام ١٨٣ هـ) . وكان هذا نقطة تحوله إلى الحياة الزاهدة الصوفية كما سنرى بعد (٣) .

وبعد : فقد كان لمدرسة عبد الله بن مسعود الأثر الكبير فى توجيه الحياة الروحية فى الكوفة وبالتالى فى العالم الإسلامى كله . اتصلت بشخصية أستاذها الكبير – خادم رسول الله وصاحبه وقارئه . « وكان رجلا حديداً » لم ينحن أبداً لأحداث الحياة الطارئة ولا تطوراتها ، وأراد أن يجعل من مجتمع الكوفة مجتمعاً محمدياً عاشه من قبل فى مدينة محمد عليه السلام . رأى تلميذه الربيع بن الخيثم « يصعق » عند رؤية الحديدة المحماة فى النار تذكرهم جميعاً بالعذاب الأبدى ، ولم ينكر ، ولكنه بلا شك عجب فى أعماق نفسه . ورأى مجموعة من عباد الكوفة يتعبدون فى الجبانات ، ولم يعرف كما يقول عبده الراجحى فى كتابه الرائع عن « عبد الله بن مسعود ومدرسته » هذا فى « سنة سيده » فذهب وأعادهم إلى بيوتهم . ويأتيه رجل يخبره أن قوماً منهم معضد بن يزيد العجلى وعمرو بن عتبة يجلسون فى المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول « كبروا الله كذا وكذا ، سبحوا الله كذا وكذا ، واحمدوا الله كذا وكذا » . فيقول عبد الله بن مسعود « إذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتنى فأخبرنى بمجلسهم . . . فأتاهم وعليه برنس له ، فجلس ، فلما سمع ما يقولون ، قام فقال : أنا عبد الله بن مسعود ، والله الذى لا إله غيره ، لقد جئتم ببدعة ظلما ، ولقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علماً . فقال معضد : والله ما جئنا ببدعة ظلماً ولا فضلنا أصحاب محمد علماً . فقال عمرو بن عتبة : يا أبا عبد الله نستغفر الله . قال : عليكم بالطريق فالزموه ، فوالله لئن فعلتم ، لقد سبقتم سبقاً بعيداً ، ولئن أخذتم يميناً وشمالا لتضلن ضلالا بعيداً (٤) » يقول الدكتور عبده الراجحى « لقد كانت أغنية الروح عند عبد الله بن مسعود هى القرآن

---

(١) نفس المصدر : ح ٣ ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ح ٣ ص ٧٢ ، ٧٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ح ٤ ص ٣٨١ .

(٤) قدمت نماذج فقط من العباد فى الكوفة ؛ وهناك أسماء أخرى لأئمة من أهمها : إبراهيم النخعى ، وإبراهيم التيمى ؛=

العظيم وحده ، يكبر ويسبح ويحمد به . وكان يرى فى القرآن مأدبة الله الأزلية ، أنزلها الله على الأرض ، لتكون عيداً لأولنا وعيداً لآخرنا . . . . . ولقد تناولها هو فى بطحاء مكة وفى بوادى يثرب ، وأراد لأصحابه فى الكوفة أن يفعلوا نفس الأمر وعلى نفس الصورة . ولم يعلم أن حياة هؤلاء كانت قد تشعبت وتضخمت ، وأنهم يعانون تجربة ذاتية لم يعانها هو . . . لقد ملأ أرض الكوفة بقرآنه ، وغناه الناس ، كل على هواه . ولعله حين عاد إلى المدينة – بلد حبيبه الذى اصطفاه من دون الصحابة – رفيقاً دائماً له ، رأى نفس الأمر ، بل رآه فعلاً حين استمع فى جوانب المدينة إلى قراءة غير قراءته . ولعله – طاب نفساً – حين أتاه ملك الموت يدعوه إلى أن يلقى الأحبة ، محمداً وصحبه » .

وسار تلامذته ورجال مدرسته بروح تعاليمه ، ووصلوا إلى النتائج التى لم يصل إليها . وكانوا الرعيل الأول ، أصحاب الروح فى العالم الإسلامى ، وعاشت تصوراتهم فى أعماق الزهد ثم التصوف . وسيقدم لنا بحث عبده الراجحى – كما قلت – النواحى المتعددة لحياة عبد الله بن مسعود وآرائه ، وتطور مدرسته .

وفى هذه المدرسة ظهر ثلاثة من كبار العباد ، بل الزهاد وهم : سفيان الثورى ، وداود الطائى ، والفضيل بن عياض ، ويمثل الثلاثة تطور مدرسة عبد الله بن مسعود من دور العبادة إلى دور الزهد . . . أو بمعنى أدق يمثلون أوائل التصوف .

=ومنصورين المعتمر السلمى ، وطلحة بن مصرف ، ووراد العجلى ، وبهيم العجلى وعرفجة ، وأرجو أن يقدم لنا عبده الراجحى دراسة وافية عن هذه الأسماء .

الفصل الثالث

نشأة الزهد

الزهاد الأوائل فى الكوفة

كان للكوفة الفضل فى وضع مصطلح الزهد – علماً على جماعة تتميز عن العباد ، كما تتميز عن القراء ، وتقابل الفقهاء والعلماء والمحدثين . وكانت الكوفة أصيلة حقًّا ، صدرت عنها نماذج الحياة الفكرية والروحية الإسلامية كلها ، بينما قفزت البصرة إلى « العبادة » إلى « حياة الروح » « طفرة واحدة ، تعيش فى متاهات الغيوب » وتبدع العبادة الصرفة البحتة ، ثم يعقبها الحياة الروحانية » ثم نظرية الخلة والمحبة ، ولكن كل ما أنتجت ، إنما كان فى نطاق واحد ، نطاق الغيب فقط ، أما الكوفة ، فقد سارت فى طريق العبادة تحت اسم القراء « ثم انبثق عن القراء المحدثون ، والعلماء والفقهاء ، ثم انبثق عنهم أيضاً العباد والزهاد ، والصوفية . ونشأ الزهد ، وتطور ، وتعمق . . . وأخذ يمد بغداد ، كما سنرى فيما بعد .

ولقد نشأت الفكرة الزهدية على يد ثلاثة من كبار العباد ، كما قلنا من قبل وسنرى أى أنموذج من الزهد قد اختطه هؤلاء ، وسنرى أنهم – وتدريجيًّا – أسلموا الحياة الروحية الإسلامية إلى دائرة التصوف البحت .

١– سفيان الثورى : عالم الأمة وعابدها .

وكان أول هؤلاء الزهاد – هو سفيان الثورى (المتوفى عام ١٦١ هـ) ولقد أجمعت مصادر الفكر الإسلامى جميعاً أن أبا عبد الله سفيان بن سعيد الثورى كان « عالم الأمة وعابدها »[١] ، ويقول عنه أبو نعيم « كان العلم حليفه والزهد أليفه » .

وقد نشأ سفيان الثورى فى رحاب الكوفة ، وقد وهبه أهله للحديث ، فكان « محدث » الأمة ثم وصل إلى الأوج فى « الفقه » وكان مفتى الكوفة الأكبر ، وكان مذهبه يضارع مذهب أبى حنيفة ، ولكن حياة الزهد التى عاشها سفيان الثورى لم تحقق لمذهبه الذيوع والانتشار ، بينما لم يكن أبو حنيفة وتلامذته المباشرون زهاداً ، فانتشر المذهب الحنفى ، واندثر المذهب الثورى .

(١) أبو نعيم : حلية ح ٦ ص ٢٥٧ .

ولسنا هنا فى مجال التأريخ لمذهب سفيان الثورى فى الفقه أو مكانته فى العالم الإسلامى كمحدث . غير أن هذا الجانب من حياته قد اتصل أكبر اتصال بالجانب الذى يعنينا – وهو الحياة الروحية لسفيان .

نشأ سفيان – كما قلت – محدثاً ، وهبه أهله « للعلم » وكان العلم يعنى الحديث ، وكان الحديث أداة الفقه . ولقد برع سفيان فى الحديث والفقه إلى أكبر حد عرفه العالم الإسلامى إبان ذلك الوقت ودعى سفيان بأمير المؤمنين فى الحديث ، وكانت رحلاته الأولى لجمع الحديث وروايته . وحين اكتملت أداة الحديث عنده بدأ يفتى المسلمين ، فكان سفيان « أفقه الناس » ويذكر عبد الله بن المبارك الزاهد المشهور عنه « ما رأيت أحداً أفضل من سفيان ، ولا أرى سفيان مثل نفسه » بل يقول الزاهد المشهور الفضيل بن عياض « إن هؤلاء أشربت قلوبهم حب أبى حنيفة ، وأفرطوا فيه ، حتى لا يرون أن أحداً كان أعلم منه ، كما أفرطت الشيعة فى حب على ، وكان والله سفيان أعلم منه » ويقارن عبد الله بن المبارك بين مجلسه ومجلس أبى حنيفة فيقول : « تعجبنى مجالس سفيان الثورى ، كنت إذا شئت رأيته فى الورع ، وإذا شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً فى الفقه ، فأما مجلس أتيته ، فلا أعلم أنهم صلوا على النبى ﷺ حتى قاموا عن شغب – يعنى مجلس أبى حنيفة وأصحابه [1] » .

وكان سفيان الثورى يعلم أن طلب الحديث بدون عبادة ، إنما هو طلب للدنيا ، فكان يردد « الحديث أكثر من الذهب والفضة ، وليس يدرك ، وفتنة الحديث أشد من فتنة الذهب والفضة » إن الناس يطلبونه للجاه ، وللتقرب من السلطان ، وليس هو أبداً « من عدة الموت ، ولكنه علة يتشاغل به الرجل » ورأى ازدحام الناس على طلبه فكان يقول « لولا أن للشيطان فيه نصيباً ، ما ازدحم عليه » وكم كره القراء والمحدثين حين أقبلوا على الولاة والأمراء ، يطلبون عز الدنيا بحديثهم وفقههم . وكان يردد : « إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان ، فاعلم أنه لص ، فإذا رأيت أنه يلوذ بباب الأغنياء فاعلم أنه مرائى [2] ، وكان يصرخ « وددت أن أنجو من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على [3] » .

وبدأت سياحات الرجل . . . أولاً لطلب الحديث ، وثانياً سياحات العباد الزهاد . وهنا يقول له صديق « يا أبا عبد الله إن فيك لعجباً » فيسأله سفيان « ما الذى بان له منى حتى يعجب ؟ فيرد الصديق « تنقلك من بلد إلى بلد ، إن للناس مأوى ، وللسبع مأوى ، وما لك مأوى تأوى إليه . . . وفاضت نفسه الكبيرة بالثورة على القراء والمحدثين ، فأخذ يتنقل من بلد إلى بلد . . . فيتنقل من الكوفة

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣٥٧ – ٣٥٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٦٣ – ٣٦٩ .

إلى الشام ، ومن الشام إلى اليمن ، ثم يعود إلى مكة ، فيطوف ويصلى ، ويكثر الطواف ويكثر الصلاة ، ثم يضجع فى رحاب المسجد ويظن الناس أنه اضجع حتى يصبح ، ولكنه ما يلبث أن يهب من نومه ، ويأخذ وجهته إلى الجبل الذى كان يأوى إليه ، فيصيب إبهام قدمه حجر ، فيدميها فيضجع ويقول « أف لها ما أكثر كدرها[1] » . وها هو يكتب إلى أحد أصدقائه — عباد بن عباد داعياً إلى الخمول « فإن هذا زمن خمول » ويطلب منه الاعتزال عن الناس والانفراد عنهم ، والابتعاد عن أمراء المسلمين . حتى فى التشفع ورد المظالم عن الناس ، ويرى أن هذا خديعة إبليس « وإنما اتخذها فجار القراء سلما » . . . وينهى حتى عن نصيحة الناس ، ولكنه لم يستطع صبراً ألا ينهى المهدى وقد رآه يحج فى أبهة وترف[2] . ويذكره بحج عمر بن الخطاب المقتصد الذى ذهب إلى بيت الله فى هدوء ودعة ومسكنة .

ولم تكن العبادة أو الزهد عند سفيان تعنى التبطل عن التكسب ، بل دعا القراء إلى العمل — والتكسب من ذات أيديهم . فيذهب إلى البصرة فيجلس فى مجلس العابد البصرى يوسف بن عبيد . فإذا فتيان كان على رؤوسهم الطير فقال « يا معشر القراء — ارفعوا رؤوسكم ، فقد وضح الطريق ، واعملوا ولا تكونوا عالة على الناس » ويدعوهم مرة أخرى إلى عدم إظهار التخشع « لا تزيدوا التخشع على ما فى القلب . . . فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . . . ولا تكونوا عيالاً على المسلمين[3] » .

وبعد : فلقد رأى سفيان الثورى أن الحديث ليس عدة المؤمن وأن الناس إنما يتخذونه لمطالب الدنيا . ولعل أبلغ ما يعبر عن نظرته إلى الحديث فى الفترة الثانية من حياته هو ما أطلقوه على لسانه بعد موته ، حين رآه أحد أصدقائه فى الحلم وسأله عما فعل الله به فى آخرته ، فأجاب « عفا عنى حتى طلب الحديث[4] » .

انتهت المرحلة الأولى من حياة الرجل — مرحلة الحديث — لكى يدخل الرجل فى دور العبادة ، أو بمعنى أدق مرحلة الزهد ، ولم تعرف كلمة الزهد قبل سفيان الثورى — كمصطلح يطلق على ترك الدنيا ، والاتجاه إلى الآخرة وها هو يقول « الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العبا » ويقول « ليس الزهد فى الدنيا ، بأكل ولبس الخشن ولا بأكل الخشب إنما الزهد فى الدنيا قصر الأمل » وكان يردد « ازهد الدنيا ونم[5] » وكان يرى أن الحكمة ثمرة الزهد ، ينبتها الله فى قلب المؤمن .

ثم بدأت سياحاته مع مجموعة من الزهاد ، وسار فى ركابه إبراهيم بن أدهم الصوفى الخراسانى

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣٧٥ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣٧٢ — ٣٧٧ .
(٣) نفس المصدر : ج ٦ ص ٣٨٢ .
(٤) نفس المصدر : ج ٦ ص ٣٨٤ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣٨٧ .

المشهور[١] . . . بل اعتبره إبراهيم بن أدهم « إمام الزهاد » فيذكر صاحب الحلية « دخل إبراهيم بن أدهم المسجد ببيت المقدس وسفيان الثورى وجماعة ، فلما صلوا فى المسجد ، وصاروا فى الصحن ، انحرف سفيان يريد الصخرة ، فقال له إبراهيم : يا أبا عبد الله . ارجع . فإنك قد ابتليت وصرت لنا إماماً . فلا يراك الناس فيروه حتماً . فانصرف سفيان وقال : صدقت : فخرجا ، ولم يمض سفيان إلى الصخرة [٢] . وبهذا نرى أن هذا العابد المشهور هذا الأمير الخراسانى الكبير – إبراهيم بن أدهم – يعتبر سفيان الثورى إمامه .

ونستنتج من هذا أن سفيان الثورى قد أصبح فى هذه المرحلة « إمام الزهاد ومقدمهم » ولعل السبب فى هذا أن الزهاد رأوه يجمع بين علوم الدنيا وعلوم الآخرة . فبينما شغل العباد من قبل وفى البصرة خاصة بالتعبد عن الرواية ، نرى سفيان الثورى يتميز أنه دخل البيوت من أبوابها ، دخل باب العبادة من باب الفقه ، أو بمعنى أدق جمع – فيما سيعرف فيما بعد عند الصوفية بين الشريعة والحقيقة .

والآن :ماهى حقيقة« الزهد » الذى بشر به سفيان الثورى فى أرجاء العالم الإسلامى ، فى سياحاته الطويلة ، وقد أخذ يتنقل بين المدن والقرى والبوادى والحضر ، هربا من هارون الرشيد مرة ، ومن المهدى مرة أخرى . إن أجمل تحديد لهذا الزهد ، حين أتاه صديق له ، وسأله « أرى الناس يقولون سفيان الثورى ، وأنت تنام الليل . فقال لى – اسكت ملاك هذا الأمر – التقوى [٣] فلم يكن إذن مرده وملاكه وجوهره تعذيب الجسد من قيام مستمر بالليل ، وصيام الدهر ، وإنما هو تهذيب النفس من شوائب الدنيا ولذلك كان يقول « ما عالجت شيئاً قط أشد على نفسى ، مرة على ، ومرة لى[٤] » هذا بالرغم من أن ثيابه ونعليه قد قومت ، فلم يصل ثمنها إلى أكثر من درهم وأربعة دوانيق ، وكان يقضى الأيام بدون طعام وكان من الخائفين بل كان من البكائين . وكان يعيش فى خوف دائم من عذاب الله كما كان يصلى الليالى الطوال ، وتذكر المصادر أنه كان يستمع إلى آيات العذاب ، فيطيش ويخرج هائماً . وكان يقرأ يوماً فى الزوال فمر بهذه الآية« فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ – يوم عسير » فخرج هارباً هائماً على وجهه حتى رده أصحابه إلى الكوفة[٥] . . . بل إنه خلف المقام وفى أعماق الكعبة ، رفع رأسه إلى السماء ، فانقلب مغشيًّا عليه ، فأدخلوه وصبوا عليه الماء ، حتى أفاق ، ويعلق تلميذ من تلامذته « ليس النظر قلبه إنما قلبته الفكرة » وكان يبكى حتى فى الصلاة ، فينقطع ثم يعيد التلاوة .

---

(١) نفس المصدر حـ ٦ ص ٣٣٨ ، ٤٨٩

(٢) نفس المصدر ح ٨ ص ٥٠ .

(٣) إبن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٨٣ .

(٤) أبو نعيم : حلية ح ٧ ص ٥ .

(٥) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٩ .

وإذا كان جوهر الزهد عنده هو التقوى ، فإن اليقين أيضاً هو عنصره الأساسى « ولو أن اليقين استقر فى القلب ، كما ينبغى ، لطار فرحاً وحزناً ، شوقاً إلى الجنة ، أو خوفاً من النار[١] » .

والعنصر الثالث للزهد عنده هو سقوط المنزلة . فقد سئل سفيان « ما الزهد فى الدنيا ؟ » فقال « سقوط المنزلة[٢] » . ولذلك خرج هائماً على وجهه ، ورفض القضاء للمهدى . واستتر واختفى ، فلما قابله أمراء المهدى ، أخذ ينقدهم بعنف وقوة . مضى الرجل مبشراً بالزهد ، فى قوة وحماس ، كما كان ينشر الحديث ، وكان يعلن « عليكم الزهد ، يبصركم الله عورات الدنيا ، وبالورع يخفف الله عليكم حسابكم ، وادفعوا الشك باليقين ، يسلم لكم دينكم » ويتنقل من مكان إلى مكان ، ويكوم الحصا يستند عليه ، ويتكئ وينام فى الجبال ويقول « هذا خير من أسرتهم »[٣] . وكان يرى الزهد الحق فى سقوط المنزلة وعدم قبول الرياسة ، يقول سفيان « ما رأيت الزهد فى شىء أقل منه فى الرياسة ، ترى الرجل يزهد المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإذا نوزع فى الرياسة ، حامى عليها وعادى[٤] » .

ثم انتهى الزهد بسفيان الثورى إلى الزهد فى الناس وأول الزهد فى الناس زهدك فى نفسك[٥] وتمنى سفيان الموت تمنياً صادقاً ، وكان يذكر الأثر : « الناس نيام ، فإذا ماتوا ، انتبهوا[٦] » .

أما بعد : فقد كان لدخول سفيان الثورى — وهو إمام العلم — الحديث والفقه — إلى حياة العبادة ، ومناداته بالزهد — علل وأسباب أما أولها وأهمها — فهو العامل النفسى ، فقد كان الرجل ، يرى منذ نشأته الأولى — أن على طالب الحديث أن يقضى عشرين عاماً فى العبادة ، فإذا طلب الحديث بعد ذلك فإنما يطلبه ابتغاء مرضاة الله ، وتقرباً له . ولما سار شوطاً بعيداً فى الحديث أدرك أنه إنما يطلب للدنيا ، فتاقت نفسه للعبادة — ثانيهما مقابلاته المتعددة لعباد المسلمين فى الكوفة ، وفى البادية ، ثم فى البصرة ومكة . وفى كل هذه المقابلات يظهر عالم الحديث القديم إماماً للزهاد والعباد . فإبراهيم بن أدهم — على جلالة قدره — يعتبره إماماً — ويطلب منه ألا يقف عند الصخرة فى بيت المقدس حتى يراه الناس ، فتكون سنة لمن بعده ، وقد أطاع إمام الزهاد . ولم يفعل . ونحن نتساءل : هل فقه إبراهيم ابن أدهم السنة أكثر من عالمها . أم أن مغزى القصة أن سفيان الثورى كان لم يبلغ بعد المنى الحقيق لطريق العبادة وجوهرها : عدم الشهرة ، فرده أمير خراسان المتزهد : ولقد تنبه العباد من بعدهما إلى وجه الفرق بينهما . ولكن يبدو دائماً سفيان الثورى فى القمة فى الطريق . لقد سئل يمان بن معاوية

---

(١) إبن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٨١ ، ٨٢ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ح ٧ ص ١٧ .
(٣) نفس المصدر : ح ٧ ص ١٦ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ح ٧ ص ٣٩ .
(٥) أبو نعيم : الحلية ح ٧ ص ٦٩ .
(٦) نفس المصدر السابق ح ٧ ص ٦ .

المشهور بالأسود العابد : رأيت إبراهيم بن أدهم . فضحك وقال : وأكبر من إبراهيم . قيل له : من . ؟ : قال سفيان الثورى : ثم قال : سمعت أخى سفيان الثورى : ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه فى الآخرة . ويحق على المنعم أن يتم على من أنعم عليه [١] » . فالثورى إذن قد صاحب معاوية الأسود [٢] ، وسار معه شوطاً ، كما صاحب أبا حبيب البدوى — وهو أيضاً من كبار العباد : وهو نفسه يقول : أصبت قلبى يصلح بين مكة والمدينة بين قوم غرباء — أصحاب بتوت وعباد » . كان الثورى إذن يفتش عن هؤلاء ، لكى يطمئن قلبه ويصلح ، وفى الطريق بين مكة والمدينة قابل العابد المشهور أبا حبيب البدوى . ويقص هو نفسه أنه قال له حين قابله « يا سفيان : هل رأيت خيراً قط إلا من الله . ؟ : قلت لا : قال : فلم تكره لقاء من لم ترخيراً قط إلا منه » يا سفيان منع الله لك عطاء ، وذلك أنه يمنعك من غير بخل ولا عدم ، ولكن نظراً لك واختياراً . . . ثم قال له : يا سفيان : إن فيك لأنساً ، وإن عنك لشغلا [٣] » :

وفى مكة قابل سفيان الزاهد الكوفى الفضيل بن عياض وكان قد استقر فى مكة — وكان يلتقيان فى المسجد الحرام فما يتذكران إلا النعم ، حتى يفترقا — يقول فضيل لسليمان : يا أبا محمد ألا عمل بنا كذا » ويقف فضيل على رأس سفيان وحوله جماعة ، فقال له « قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » ويرد سفيان فيقول له « يا أبا على . والله لا نفرح أبداً حتى نأخذ دواء القرآن ، فنضعه على القلب [٤] » . ويتقابلان مرة ثانية ، فتذاكرا وبكيا . ويقول سفيان : إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة : فرد الفضيل : ترجو ، لكنى أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤماً . أليس نظرت إلى أحسن ما عندك ، فتزينت به لى ، وتزينت لك ، فعبدتنى وعبدتك . فبكى سفيان ، حتى علا نحيبه . ثم قال : أحييتنى أحياك الله [٥] » . ويبدو هنا أيضاً الزاهد الكوفى القديم عالياً على سفيان . ولكن الفضيل نفسه حين سئل فى بعض ما كان يذهب إليه من الورع : من إمامك . فقال : سفيان الثورى[٦] .

ثم نراه يسعى إلى شيبان الراعى ، ويخرج معه للحج مشاة . ويقص سفيان أنهما لما صارا ببعض الطريق ، إذا بأسد يعارضهما . فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا الكلب قد عرض لنا . فقال لى :

---

(١) نفس المصدر حـ ٧ ص ٥٢

(٢) انظر ترجمة معاوية الأسود — أبى نعيم : حلية حـ٨ ص ٢٧١ — ٢٧٣

(٣) أبو نعيم : حلية حـ ٧ ص ٦ ، حـ ٨ ص ٢٨٧ — ٢٨٨

(٤) أبو نعيم : حلية ح ٨ .

(٥) نفس المصدر ح ٧ ص ٦٤ .

(٦) نفس المصدر ح ٧ ص ٣ ، والحرفيش . الروض الفائق ص ٨٧ .

لا تخف يا سفيان . ثم صاح بالأسد فبصبص وضرب بذنبه مثل الكلب ، فأخذ شيبان بأذنه وعركها . وكره سفيان هذا – وقال له : ما هذه الشهرة . فرد شيبان الراعى وأى شهرة ترى يا ثورى : لولا كراهية الشهرة ، ما حملت زادى إلى مكة إلا على ظهره[١] . ويبكى سفيان بين يديه من أول الليل إلى آخره – ويسأل شيبان : يا سفيان : لم بكاؤك . إن كان لأجل المعصية ، فلا تعصه . ويجيب سفيان : بأن الذنوب لم تخطر بباله قط ، صغيرها ولاكبيرها . « وليس بكائى يا شيبان من أجل المعصية ، ولكن من خوف الخاتمة » ، ويعلمه شيبان فيقول « إن من شؤم المعصية ، الإصرار على الذنوب ، فلا تعص ربك طرفة عين[٢] » . وهنا يبدو شيبان معلماً « لأمير الحديث » ، ثم إمام العباد » يعلمه معانى الشهرة ، ثم يطلب منه أن يكون فى مقام المراقبة ، يراقب نفسه فلا تعص الله طرفة عين .

وكما سعى سفيان إلى أبى حبيب البدوى وشيبان الراعى ، سعى أيضاً فى طلب عابد من عباد الكوفة يقال له « الكوثانى » لمدة عشرين سنة ، فلم يتمكن من مقابلته ، حتى مر يوماً بشاطئ الفرات ، وقوم يعملون فى الطين ، فنادى رجل منهم الآخر « يا كوثانى » فذهب إليه سفيان ، وقدم إليه نفسه ، وطلب منه أن يعظه . ثم تركه الكوثانى وانصرف[٣] .

وكان سفيان الثورى على صلات بداود الطائى – الزاهد الكوفى ، وكان داود من تلامذة أبى حنيفة ، ولم تكن الصلات بين سفيان وأبى حنيفة طيبة ، ولكن لم يمنع هذا العابد الكبير من أن يكيل المدح لداود ، فكان سفيان إذا ذكر داود قال « أبصر الطائى أمره[٤] » .

كذلك كان الأمر فى صلاته بالعابد الزيدى « الحسن بن صالح بن حى » كان الحسن بن صالح ابن حى من كبار محدثى الإسلام ، ومن كبار عباده . بل كان درة من درر الزهد الحقيقى ، وكثيراً ما اجتمع بسفيان . وكان اجتماعهما اجتماع صفاء ومحبة . وقد يؤدى هنا بنا إلى إثارة فكرة زيدية سفيان . هل كان سفيان زيدياً ، وقد حاول العلامة العراقى الدكتور كامل الشيبى إثبات زيدية سفيان ، وقد استند على نصوص قوية تثبت هذا[٥] . غير أن فى هذا كثيراً من التغالى : فلم يكن سفيان زيديًّا – بمعنى دخوله فى نظام شيعى معين ، وإنما كان «كوفيًّا» أحب عليًّا ، كما أحب الشيخين . . . بل إنه

---

(١) أبو نعيم . حلية ح ص ٩٦ .

(٢) الحريفيش : الروض الفائق فى المواعظ والرقائق ص ١١ .

(٣) أبو نعيم . ح ٧ ص ٨ .

(٤) نفس المصدر : ح ٧ ص ٣٣٦ .

(٥) الدكتور كامل الشيبى الصلة : ح ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

أحب عثمان ، وكان يقول « لا يجتمع حب على وعثمان إلا فى قلوب نبلاء الرجال » إنه تولاهم جميعاً . ولكنه – كسائر الكوفيين – يفضل علياً على أبى بكر وعمر[١] . وهذا هو سبيل العباد والزهاد من المسلمين : تولوا الجميع ، ولكنهم أحبوا صاحب الروح والعابد الأول من صحابة محمد رسول الله .

ولم يكن هؤلاء كل من قابلهم سفيان الثورى وأثروا فى اتجاهه العبادى ، بحيث أصبح شيخ الزهاد فى الكوفة ، بل شيخ الزهاد فى العالم الإسلامى ، وأعطى للزهد – كمذهب فى الحياة – صيغته المشروعة فى الحياة الإسلامية . إن المصادر تحمل إلينا أسماء رجلاً وامرأتين كان لها الأثر النافذ فى اتجاه سفيان الثورى الروحى .

أما الرجل : فهو أبو هاشم الكوفى أو أبو هاشم الصوفى ، وسنعود إلى بحث قصة أبى هاشم الكوفى بعد قليل . غير أننا نود أن نشير هنا فقط إلى أن المصادر تذكر أنه كان معاصراً لسفيان الثورى ، وأن سفيان قال عنه « لولا أبو هاشم ما عرفت دقيق الرياء » ، وقد ذكر هذا النص أيضاً ابن الجوزى عن سفيان فى صورة أخرى « ما زلت أرائى ، وأنا لا أشعر ، حتى جالست أبا هاشم ، فأخذت منه ترك الرياء[٢] » . ويلحظ هنا أن سفيان الثورى يبحث وراء هذه الشخصية التى قيل إنها أول من تسمى بالصوفى ، وأنه جلس وتعلم منه تحركات القلب فى موضوع من أدق موضوعاته .

أما المرأتان : فأولهما : بنت أم حسان الأسدية : ويبدو أنه قابلها فى البصرة . وكان يدخل عليها ، كان يراها ساجدة ، فإذا ما قامت من سجدتها يرى أثر السجود على جبهتها ، وليس به خفاء . ويطلب منها أن تذهب إلى أمير البصرة ، وأن تطلب بعض زكاة ماله ، لتستعين به على أمرها . إنه مازال فى باب الفقه . وترد عليه العابدة الكبيرة : « يا سفيان . لقد كان لك فى قلبى رجحان كبير ، فقد أذهب الله برجحانك من قلبى . يا سفيان تأمرنى أن أسأل الدنيا من لا يملكها . وعزته وجلاله إنى أستحى أن أسأله الدنيا ، وهو يملكها » . ويقص سفيان الثورى ، أنه كان إذا جن عليها الليل ، دخلت محراباً لها ، وأغلقت عليها ، ثم نادت « إلهى خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يا محبوب ، فما كان من سجن تسجن به من عصاك إلا جهنم ، ولا عذاب إلا النار » ودخل عليها سفيان بعد ثلاث ، فإذا الجوع قد أثر فى وجهها ، فأخذ يترنم بالقرآن وهو جالس ينظر إليها . ثم يقول لها : « يابنت أم حسان . إنك لن تؤتى أكثر مما أوتى موسى والخضر عليهما السلام . إذ أتيا أهل القرية ، فاستطعما أهلها » فردت عليه : يا سفيان : قل الحمد لله : فقال الحمد لله . فقالت : اعترفت له بالشكر . قلت : نعم . قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكر ، وبمعرفة الشكرين ، شكر لا ينقضى ويعترف سفيان :

---

(١) أبو نعيم : حلية ح ٣ ص ٣١ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ح ص ١٧٢ .

فقصر والله علمى ، وفسد لسانى ، وما أقوم بشكر ، كلما اعترفت له بنعمة ، وجب على بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر . . . . . وولیت وأنا أريد الخروج . . . وهنا تصيح فيه : يا سفيان . كفى بالمرء جهلا أن يعجب بعمله ، وكفى بالمرء علماً ، أن يخشى الله . اعلم أنك لن تنقى القلوب من الردى ، حتى تكون الهموم كلها فى الله همًّا واحداً . . . ويقول هذا الفقيه الكبير ، أمير الحديث : فقصرت والله فى نفسى [١] .

وفى أعماق البصرة ، يقف الفقه والحديث أمام العبادة ، أمام الزهد . وتصور لنا المصادر هذا الأخير عالياً على الأول ، وإمام الحديث وصاحب المذهب الفقهى الكبير فى مجلس التلميذ أمام المغنية الغانية ، عازفة الألحان الدنيوية ، أمام رابعة العدوية . وكان يأخذ . . . بيد جعفر بن سليمان ويقول له « مر إلى المؤدبة التى لا أجد من أستريح إليها إذا فارقتها » هنا يقف الفقيه الكبير أمام هذه الزاهدة ، عاشقة الله ، موقف التلميذ ، وهى تنهاه الدنيا ، تنهاه عن الكبر والرياء . . . وتنهاه عن الحديث كانت ترنو فى دلال حزين — وقلق الحب وحيرته تحرقها — إلى محدث العالم الإسلامى الأكبر ، وهو جالس بين يديها ، وفى وعاء قلبه حديث محمد ﷺ ، أما هى ، فكانت تتغنى بالخلة ، المرتبة الأخيرة للرسول ، حيث اقترب ، بل استهلك ، فى مقام قاب قوسين أو أدنى . ثم تقول « نعم الرجل أنت ، لولا رغبتك فى الحديث . . . ثم تنطلق تغنى :

إنى جعلتك للفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ويبدو أن الرجل — محدث الأمة الإسلامية قد انتهى الإيمان « بالخلة » وهناك نص نادر ، لم ينتبه إليه أحد من الباحثين ، « وذلك أن سفيان الثورى قد سئل عن تفسير قول إبراهيم : « ليطمئن قلبى » ، فقال « سفيان بالخلة [٢] » . « وبهذا أصبح سفيان الثورى تلميذاً لمدرسة الخلة التى كانت رابعة العدوية رائدتها الأولى »

ولم تنته مدرسة سفيان الثورى بوفاته ، لقد ترك فى الكوفة « حلقات الزهد » تعمل باسمه ، كما ترك بأصبهان ، وقد ترك مجموعة من تلامذته . ويخبرنا صاحب الحلية عن « أصحاب سفيان الثورى ومنزلتهم فى العلم والعبادة ومكارم الأخلاق ، وفواضل الأعمال » . وكان الزهاد « تفرغ إلى أدعيتهم عند نزول المحن والأعلال . فترى الإجابة فى الوقت . يقصدون من الديار والنواصى البعيدة ، يسألون الدعاء فى عوارضهم ، فيدعون ويرون الإجابة [٣] » .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ٩ ، ١٠ ، وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣٠ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٧ ص ٧٦ . (٣) نفس المصدر ج ١٠ ص ٣٩٤ .

وبهذا عاش مذهبه الزهدى ، كما عاش مذهبه الفقهى مدة طويلة من الزمن . بل يرى العلامة العراقى الدكتوركامل الشيبى أن لسفيان فى الزهد مقاماً من أكبر المقامات . إنه يرى أن « ميل سفيان إلى المذهب الزيدى آت من أن عقيدة الزيدية تقضى بأن الإمام ليس معصوماً ، وليس أعلم المسلمين ولا يتميز عنهم إلا بأنه علوى فاطمى ، يصلح لإمامة المسلمين . أما التفوق فى العلم فيسر لمن انقطع له . ويجب أن نكرر هنا أن هذه النظرية الزيدية ، هى التى فتحت للزهاد باب الولاية ، وأثارت فى نفوسهم الطموح إليها . فما دام المجال قد انفتح أمام المسلم بعمله وجهده ، لا بتوقيف ولا بنص الهين . فقد زال الحاجز الذى كان يطامن من غلواء الزهاد ، فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على نقد الإمام الصادق على لبسه الخز ، وكان عيسى بن زيد بن على يحتكم إليه[1] .

وحقًّا إن سفيان الثورى فتح للزهاد طريق الولاية المستندة على العمل والجهد والعلم ، ولكنه لم يكن زيديًّا – بمعنى الكلمة . على أن كل هذا دليل على أن الرجل أثر فى الزهد والزهاد ، أكبر تأثير . بل حمل عنه الزهد ، مجموعة من كبار الزهاد كعبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط .

٢– داود بن نصير الطائى : الصمت والثورة على الفقه :

وتظهر فكرة الزهد – عالية على الفقه فى الكوفة أيضاً – موطن الفقه وعلى يد فقيه ومحدث هو داود ابن نصير الطائى (المتوفى عام ١٦٥ هـ) ، وقد اعتبرت كتب النصوص داود الطائى أول الزهاد الرسميين فى العالم الإسلامى ، وأرخوا له جميعاً فى كتبهم . وكان – بالذات – من رجال « الرسالة القشيرية والتى حاول صاحبها أن يؤرخ فى براعة نادرة للتصوف منذ نشأته .

ولقد نشأ داود نشأة علمية خالصة ، وكان العلم يعنى فى هذا الوقت الحديث والفقه ، وتتلمذ على أبى حنيفة . وكان داود الفارس المجلى فى حلقة أبى حنيفة . وفى إحدى مجالسه قال له أبوحنيفة : يا أبا سليمان : أما الأداة فقد أحكمناها ، فسأله داود : فأى شىء بقى . فقال أبوحنيفة : العمل به . ويقص هو نفسه : فنازعتنى نفسى إلى العزلة والوحدة ، فقلت لنفسى : حتى تجلس معهم ولا تتكلم فى مسألة . فجالستهم سنة ، لا أتكلم فى مسألة ، وكانت المسألة تمر بى . وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد ، ولا أتكلم به[2] . . . » هنا يضع داود الطائى للصوفية من بعده طريق تصفية النفس ونوازعها ، والتخلص من عجبها وغرورها . ويفرض على نفسه « الصمت » أو « الصوم عن الكلام » وهنا نتساءل : هل هنا أثر مسيحى ، فقد كان الرهبان يفرضون على أنفسهم الصمت ،

(١) الدكتور الشيبى : الصلة حـ ١ ص ٢٩٧

(٢) أبو نعيم : الحلية حـ ٧ ص ٣٤٢ والرسالة القشيرية حـ ١ ص ٧٤

لمدد طويلة . ولا أجد فى تاريخ داود الطائى ما يثبت هذا . كان الأمر كله منازعة نفسية ، وموقفاً داخليًّا ، حين نبهه أستاذه الكبير أبو حنيفة إلى فكرة العمل ، وبخاصة أن عوامل متعددة قد دخلت فى أعماق الرجل . فقد ذكر القشيرى أن داود كان يمر ببغداد يوماً ، فنحاه المطرقون أى الحرس بين يدى الوزير حميد الطوسى ، ويبدو أنه كان على معرفة بحميد . فقال داود : أف لدنيا سبقك بها حميد . كما يقال أيضاً إن سبب زهده أنه سمع نائحة تقول :

بأى خديك تبدى البلى وأى عينيك إذا سالا

وترد القصة عند ابن الجوزى فى صورة أخرى من أنه سمع هذه النائحة على مقبرة تقول : يا حبى – ليت شعرى – بأى خديك بدأ البلى ، بالأيمن أم بالأيسر . فصفق وتراءت أمامه الصور . . ودخل مرة أخرى إلى مقبرة ، فسمع امرأة عند قبر وهى تقول :

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه لقاؤك لا يرجى وأنت قريب

تزيد بلى فى كل يوم وليلة وتسلى كما تبكى وأنت حبيب [1]

وانتهى الأمر بداود أن « ألزم البيت وأخذ فى الجهد والعبادة [2] » أو بمعنى أدق ، دخل فى مرحلة قطع العلائق .

وفى هذه المرحلة كان ينادى : سبقنى العابدون وقطع بى ، والحفاه [3] .

أما آراء داود الطائى الروحية : فيمكن وضعها على النسق الآتى : إن العلم وحده ليس طريق النجاة ، إنه مرحلة لابد منها ، ولكن على أن يعقبها العمل « إن العلم آلة العمل ، فإذا أفنى عمره فيه ، فمتى يعمل [4] » وقد رأى فقه إمامه أبى حنيفة ينتهى إلى التقنين للدنيا ، وسيخرج – كما قدر هو – إلى خدمتها فقط ، فنشأت « الحيل الشرعية » على يد تلامذة أبى حنيفة . فقام هو بثورته على الفقه . بل لما « علم أنه بصير ، عمد إلى كتبه . فغرقها فى الفرات » وكان يجيب إذا سئل « انقطع الجواب [5] » كانت ثورة عاتية على الفقه وفى مجلس أبى حنيفة نفسه .

وأعلن أيضاً فكرة « الفرار من الدنيا » إنه ماخالط الناس أحد إلا نسى العهد » ، وبحك صم الدنيا ، واجعل الفطر صوتك ، ولكنه لا ينسى الفقه أبداً « اجتنب الناس غير تارك لجماعتهم » . ويضع للمسلمين خطوات الطريق : كفى باليقين زهداً ، وكفى بالعلم عبادة ، وكفى بالعبادة شغلا » ثم يضع اصطلاح المريد والزاهد « من علامات المريدين الزاهدين فى الدنيا ترك كل جليس لا يريد ما يريدون [6] » .

(١) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٧٤ .
(٢) الرسالة : ح ١ ص ٧٤ .
(٣) أبو نعيم : الحلية ح ٧ ص ٣٣٦ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ح ٧ ص ٣٤١ .
(٥) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٣٦ .
(٦) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٤٦ .

وألقى داود الطائى بدلوه لا فى أعماق الزهد وحركاته ، بل فى أعماق التصوف ، فنرى إبراهيم بن أدهم ينقل عنه « إن للخوف تحركات ، تعرف فى الخائفين ، ومقامات يعرفها المحبون ، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون وأن أولئك ، هم الفائزون »[١] . وكان يصيح بالليل « إلهى همك عطل على الهموم الدنيوية ، وحال بينى وبين الرقاد »[٢] .

وهذا كلام خطير فى أعماق التصوف . ولا جرم بعد ذلك أن أتاه كبار الزهاد من كل مكان . الفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة وسفيان الثورى . وكان سفيان يبكى بين يديه ، كما كان له أثره الكبير فى أبى سليمان الدارانى شيخ مدرسة الشام .

ومن هذا نرى أنه انبثق فى أعماق هذا الفقيه الخوف العارم ، خوف مشوب بالحب ، ومعانياته ، والشوق وأشجانه . فعاش حياة زاهدة قاسية ، لم تعرفها الكوفة فعلاً ، وقد امتلأت كتب التصوف بالأخبار التفصيلية عن تزهده كما امتنع عن الزواج .

ولقد رأى العلامة العراق الدكتور كامل الشيبى فى امتناع داود الطائى عن الزواج أثراً مسيحيًّا . يقول « وزاد تأثير النساك فى داود حتى رأيناه يتخذ التبتل منهجاً لحياته ومظهراً لها ، فبقى أربعاً وستين سنة أعزب ، وقد علل ذلك بقوله « قاسيت شهوتهن عند إدراكى سنة ، ثم ذهبت شهوتهن من قلبى — فداود إذن أول زاهد دخل فى زهده العامل المسيحى واضحاً[٣] » .

وفى الحقيقة إن من الصعوبة بمكان تبين العامل المسيحى فى زهد داود الطائى ، أو حتى فى امتناعه عن الزواج . إننا لا نرى أدنى اتصال بينه وبين الرهبان المسيحيين ، اللهم إلا إذا كانت أخبار الرهبان قد استفاضت ، ووصلت إلى أعماقه . إن تزهده — كما رأينا — كان ناشئاً عن ضيقه بجمود الفقه وحيله ، وابتعاده عن الفكرة الأخروية ، فليس إذن ثمة مجال للقول بأنه تأثر بالرهبنة المسيحية ، ولكننى مع ذلك أود أن أعلق المسألة . أو بمعنى آخر ، إنه من المحتمل أن يكون قد تأثر فى امتناعه عن الزواج بالرهبنة المسيحية ، ولكن ليس بين أيدينا من النصوص ما يحقق هذا تحقيقاً حاسماً . إننا قد رأينا أنه يطلب الصوم الدنيا ، وأن يكون الموت هو فطر المؤمن ، ولكنه يطلب « عدم مفارقة الجماعة ، جماعة المسلمين . فهل فى هذا أثر مسيحى أو أثر رهبنة . كما أن الرجل لم يحاول قط أن يدفع بالمسلمين إلى طريقته ، أو أن ينشئ دويرة ، كان يرى أن الناس أضعف من أن يتحملوا ماتحمل . ثم إنه كان دائم الصلاة فى المسجد ، فلم ينقطع عنه يوماً .

وبعد : فقد كان داود الطائى الشخصية الثانية التى أعلنت الزهد من مدرسة الكوفة . وسيذكر

---

(١) نفس المصدر ح ٧ ص ٣٤٦ .

(٢) الرسالة ح ١ ص ٧٥ .

(٣) الدكتور الشيبى : الصلة ح ١ ص ٢٩٨ .

الجامى أنه كان من أقران الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، كما سيذكر العطار أنه كان شيخ طريقة الراعى[1] .

أما الممثل الثالث للزهد السنى إبان ذلك الوقت وكان معاصراً ، بل كان من أقران داود الطائى ، فهو الفضيل بن عياض ، وكان الفضيل خراسانيًّا ولكن قيل إن أصله من الكوفة ، ثم انتقلت أسرته إلى خراسان ، فإذن من الأفضل أن نضعه فى مدرسة خراسان وأن نبحثه فيها . هذا مع العلم بأنه من الصعوبة بمكان أن نفصل الاتجاهات المشتركة بين المدارس وأفرادها ، علاوة على أن الفضيل بن عياض أتى الكوفة ، وقابل داود ، كما قابل سفيان الثورى . وكذلك فعل إبراهيم بن أدهم ، ثم إن الفضيل بن عياض انحدر بعد ذلك إلى مكة حيث عاش ومات .

إن ما أود أن أنتهى إليه أن « الزهد » كمصطلح نشأ فى أعماق الكوفة ، ولم يظهر فى البصرة . وسنرى نفس الأمر فى مصطلح التصوف .

وأنتقل الآن إلى بحث مدرسة الكوفة الشيعية الزاهدة ، والتى أيدت من ناحيتها أيضاً قواعد الزهد ثم التصوف .

---

(١) الدكتور الشيبى : ج ١ ص ٢٩٨ .

obeikandl.com

الفصل الرابع

مدرسة الزهد الشيعى الأول

ولست أقصد بكلمة « الشيعى » هنا مجموعة من الناس اتخذت نظاماً خاصًا فى الحياة يختلف عن نظام المجموعة السنية . لم يكن الشيعة الأوائل المقتصدون يختلفون أدنى اختلاف عن غيرهم من المسلمين ، كان الجميع يتولون الشيخين ، ولكن مجموعة خاصة ، ارتبطت بعلى بن أبى طالب برباط وثيق من المودة والمحبة جعلتهم يؤمنون بأحقيته بالخلافة وإمامة المسلمين قبل الشيخين ، ولكنهم أطاعوا الشيخين ، بل أطاعوا الشيخ الثالث أيضاً : ومن أمثال هؤلاء : أولاد بنى صوحان وحجر بن عدى نفسه . ولما مات الخليفة الثالث ، ونوزع على بن أبى طالب الخلافة ، تقدم هؤلاء الشيعة المقتصدة وحاربوا لأجل إمامهم واستشهدوا ، أو ذهبوا بعد مقتل الإمام إلى بيوتهم للعبادة – نائين عن الدنيا .

١– أويس القرنى : قطب الغوث : الأشعث الأغبر :

ولقد تعودت الشيعة أن يضعوا من أوائل رجالهم شخصية غريبة ، ظهرت فى الكوفة ، وعليها كثير من ظلال التاريخ . وعلى مجلى الحياة الروحية فى الكوفة ، ظهر « أويس بن عامر القرنى » فى بعض الأقوال ، وأويس بن أنيس أو أويس بن حليس فى أقوال أخرى[1] . وكان أويس أسطورة « التصوف » فيما بعد . وقد وصفه صاحب الحلية فقال « سيد العباد وعلم الأصفياء من الزهاد ، بشر النبى ﷺ به ، وأوصى به أصحابه »[2] وقد اعتبر أول الثمانية الذين انتهى إليهم الزهد من التابعين .

أما عن تبشير النبى به – فقد ورد فى الحديث « إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء ، الشعثة رؤوسهم المغبرة وجوههم ، الخمصة بطونهم ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء ، لم يؤذن لهم ، وإن خطبوا المنعمات لم ينكحوا ، وإن غابوا لم يفتقدوا ، وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم ، وإن مرضوا لم يعادوا ، وإن ماتوا لم يشهدوا . . . ذاك أويس القرنى » ولما سأله الصحابة « وما أويس القرنى » قال « أشهل ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، شديد الأدمة ضارب بدقنه

(١) ابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٣٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ح ٢ ص ٨٩ .

إلى صدره ، رام ببصره إلى موضع سجوده ، واضع يمينه على شماله ، يتلو القرآن ، يبكى على نفسه ، ذو طمرين لا يؤبه له . مترر بإزار صوف ، ورداء صوف ، مجهول فى أهل الأرض ، معروف فى السماء ، لو أقسم على الله ، لأبر قسمه ، ألا وإن تحت منكبه الأيسر ، لمعة بيضاء ، ألا وإنه إذا كان يوم القيامة ، قيل للعباد . . . ادخلوا الجنة ، ويقال لأويس : قف فاشفع ، فيشفعه الله عز وجل فى مثل ربيعة ومضر » ثم ينادى الرسول عمر وعليا ويقول لهما « يا عمر ، يا على ، إذا أنتما لقيتماه ، فاطلبا إليه أن يستغفر لكما ، يغفر الله لكما[1] » .

وبعد : فهذه صورة « قطب الغوث » التى انتشرت فى أوساط الصوفية فيما بعد : الصفى الحتى البرىء الأشعث الأغبر ، سيد عباد الروح ، يمشى فى طمرين ، لو أقسم على الله لأبره . . . وإن صح الحديث لكان لفكرة « قطب الغوث » أصل إسلامى . . . وأيًّا ما كان الأمر فإن عمر وعليًّا مكثا يطلبانه عشر سنين . . . فى حجيج أهل اليمن من القرنيين . . . حتى وجداه فى حجيج الكوفة . . . راعى إبل وأجير قوم . . . ووقف أمامه الصاحبان الكبيران يرددان . . . نشهد أنك أويس القرنى ، فاستغفر لنا يغفر الله لك » وينظر إليهما راعى الغنم فى دهشة ، لقد عرف أمره ، ويرد عليهما « ما أخص باستغفارى نفسى ولا أحداً من ولد آدم ، ولكنه فى البر والبحر ، فى المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات » إنه يطلق استغفاراً كونيًّا ، يملأ الدنيا جميعاً وقد رآها قد طويت له . . . ثم سألهما من أنتما : فأجابه على بن أبى طالب . فاستوى أويس قائماً . . . وقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . وأنت يا ابن أبى طالب . فجزاكما الله عن هذه الأمة خيراً . . . ويطلب منه عمر أن يبقى مكانه حتى يأتيه بنفقته وبعض ملابس . وأن هذا المكان « ميعاد بينى وبينك » فيرد أويس « يا أمير المؤمنين لا ميعاد بينى وبينك . لا أراك بعد اليوم تعرفنى . ما أصنع بالنفقة ، ما أصنع بالكسوة . أما ترى على إزاراً من صوف ، ورداء من صوف ، متى ترانى أخرقها . أما ترى نعلى مخصوفتان — متى ترانى أبليهما . أما ترانى قد أخذت من رعايتى أربعة دراهم ، متى ترانى آكلها . يا أمير المؤمنين ؟ ، إن بين يدى ويديك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا ضامر مخفف مهزول ، فاخف يرحمك الله . . . » فلما سمع عمر كلامه صرخ ، ونادى بأعلى صوته « ألا ليت ابن أم عمر لم تلده ، ياليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها ، ألا من يأخذها ، بما فيها ولها لقد وقف أمير المؤمنين » ، أمير الدنيا من « راعى الغنم الأجير » موقف التلميذ من الأستاذ ، أو بمعنى أدق موقفاً قرآنيًّا ، موقف موسى من الخضر ، موقف الفقه من التصوف . وهل القصة كلها حق ، أم هى أسطورة من أساطير المتصوفة ، حيث يقف التصوف عالياً على الفقه . . . ويطلب أويس من عمر « يا أمير المؤمنين خذ أنت هاهنا حتى آخذ أنا هاهنا » فولى عمر وصحبه على

(١) أبو نعيم : حلية ج ٢ ص ٨١ ، ٨٣ وابن الجوزى ج ٣ ص ٣٣ .

ناحية مكة ، وساق أويس إبله إلى أصحابه ، وسلم القوم إبلهم ، ثم انحنى ، مقبلاً على العبادة [١] .

هذه هى القصة الصوفية الأسطورية لأويس القرنى . . . ولكن المصادر تمدنا بصورة أخرى قد تكون أقرب إلى الحقيقة ، هو أن أويسا القرنى كان من عباد الكوفة ، يسير فيها مشترراً بطمرين . . . يسخر منه الناس وهو لا يأبه لهم . لقد وصف نفسه قائلاً « كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أن لا يمسى ، وإن أمسى ظن أن لا يصبح ، فمبشر بالجنة أو مبشر بالنار إن الموت وذكره لم يدع المؤمن فرحاً ، وإن علمه بحقوق الله ، لم يترك له فى ماله فضة ولا ذهباً ، وإن قيامه بالحق ، لم يترك صديقاً » . . . وأنه كان يتصدق كل ليلة بما فى بيته من الثياب والطعام ثم يقول « اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذنى به ، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذنى به » . فيكسوه أصدقاؤه الثياب . ثم هو ينأى عن الحديث ، ولا يقبل القضاء ولا الفتوى ، إنه فى شغل من نفسه . وتذكر المصادر أن الأحاديث الصحيحة قد استفاضت عنه . فأتى إليه العباد ، كهرم بن حيان من البصرة ، ولكن الرجل يكره « الشهرة »[٢]، « والعجب » . وحين يطلب منه هرم بن حيان الحديث يقول « إنى لم أدرك النبى ﷺ ، ولم يكن لى معه صحبة ، ولكن قد رأيت من رأى ﷺ وغيره » . فالرجل إذن ممن أدرك عهد النبوة ووصل إلى الرسول خبر تعبده وزهده . ويقال إن بره بأمه منعه من السفر لرؤية الرسول — فقال : « أويس القرنى خير التابعين بإحسان [٣] » . ثم أتى من القرنين إلى الكوفة ، واشتاق عمر وعلى لرؤيته . ووضعت الأسطورة ، وجعل منه الصوفية خضراً آخر » .

أما عن وفاته ، فاختلف المؤرخون ، فبينما يذهب البعض أنه مات فى إحدى الغزوات زمن عمر ، يذهب البعض الآخر أنه مع على بن أبى طالب فى صفين[٤] .

وإنى لا أجد أيضاً فى حياة هذا العابد من عباد الكوفة ظلالاً من آثار خارجية ، لا مسيحية ولا ثانوية . وليس فى لبسه الصوف هنا صلة بمسوح الرهبان ، فقد كان لبس الصوف عادة الرعاة من العرب . أما نسبة الغوثية إليه والقطبية ، فقد صورت على منوال قصة قرآنية .

أما عن شيعيته المقتصدة ، فإننا نراها فى اعتبار على ممن بشر به ، وبمقابلته من قبل الرسول . كما أن قصة استشهاده مع على قد ترجح أيضاً صلاته بآل البيت . على أن الشيعية هنا — كما قلت — كانت سمة المسلمين جميعاً فى ذلك العصر اللهم — إلا أهل الشام . ولم يكن من المستغرب أن يتجه هذا الأشعث

---

(١) أبو نعيم : الحلية ح ٢ ص ٨٢ – ٨٣ وابن الجوزى : صفة ح ٣ ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) أبو نعيم : الحلية ح ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ، وابن الجوزى صفة ح ٢٥٣ .
(٣) أبو نعيم حلية ٨٥ – ٨٧ وابن الجوزى صفة ح ٣ ٣٨ .
(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٣٩ ٪ ٤٠ .

الأغبر ذو الطمرين إلى على بن أبى طالب ربانى هذه الأمة ، ليقف معه ويستشهد فى حرب ضد الطليق ابن الطليق .

٢ – زيد وصعصعة بن صوحان : تلميذى سلمان :

وفى العراق – فى البصرة والكوفة معاً – أخذت الفكرة الروحية عامة مكانها الكبير على يد ابنى صوحان ، زيد وصعصعة . وكان زيد وصعصعة تلميذين كبيرين لسلمان الفارسى . صاحباه وتلقيا عنه الكثير وعاشا معه فى المدائن وغيرها . فلا جرم أن كانا من وجوه أصحاب على بن أبى طالب فيما بعد .

وقد كان زيد بن صوحان تلميذاً لسلمان كما قلنا – وقد ذكر السمعانى – صاحب الأنساب – أن زيداً كان يكنى بأبى سلمان ، بجانب كنيتيه الأخريين – أبى عبد الله وأبى عائشة . وقد تتلمذ زيد على سلمان – أثناء مقامه بالمدائن . . . . . ولسنا هنا فى مجال عرض شيعية زيد بن صوحان ، ولا معارضته لعثمان ، ولكن يهمنا – أن زعيم بنى عبد قيس هذا كان من رواد الحياة الروحية الأولى فى الإسلام . وقد ذكرت من قبل أنه أقام بالبصرة ، وبنى فيها أول دويرة فى الإسلام . وكان هو وحلقته يتذاكرون عهداً معيناً ، عهداً أول . هل هذا العهد هو ميثاق صوفى ، أو ميثاق غنوصى ، أخذه زيد عن سلمان إن صح أن سلمان كان غنوصيًّا أو أن فيه ملامح يزدان أو ملامح الإنسان الأول عند المانوية الشرقية فى المدائن . أو هو تفسير لآية العهد فى القرآن .

لم يكن زيد بن صوحان من غلاة الشيعة [١] . ولم يكن فى هذا الوقت غلاة ، كان زيد حقًّا من زعماء المعارضة لعثمان ، ولكن حين أمره عثمان بالتوجه إلى الشام ، فعل ، سمعاً وطاعة لولى الأمر [٢] . ولكن صحبته لسلمان بلاشك ، وتتلمذه عليه ، ملأه بحب على ، كما ملأه أيضاً بجانب روحى أخاذ . ويذكر صاحب شذرات الذهب أنه « قتل فى صفين سنة ست وثلاثين زيد بن صوحان من خواص على من الصلحاء الأتقياء[٣] » . ومن العبث أن نحاول أن نجد فى حياة الرجل آثاراً مانوية أو مزدكية أو مسيحية ، إنما كان من كبار أصحاب على وخواصه ، ولم يكن على من السذاجة بحيث يجعل من خواصه رجلاً لا يؤمن بالإسلام – كما تركه النبى – إيماناً كاملاً .

وكان صعصعة بن صوحان الشخصية الثانية من قبيلة بنى عبد قيس الشيعية التى يتضح فيها حياة الروح ، ولقد كان صعصعة كوفيًّا خالصاً . وقد شغل بتفسير القرآن ، واستمع إليه عمر بن الخطاب –

---

(١) السمعانى : الأنساب . . ورقة ٦٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ٨٥ ٪ ٨٦ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ج ١ ص ٤٤ .

وقال له : « أنت أنت مناه[١] . وكان من رؤساء المعارضة الشيعية لعثمان ولمعاوية . وقد سيره والى عثمان على الكوفة هو وبعض المعارضين إلى الشام لمقابلة معاوية . ويذهب ماسينيون إلى أن صعصعة بن صوحان هو أول من نادى فى هذه المقابلة عام ٣٣ هـ – أمام معاوية بالنظرية الشيعية التى تجعل من إمامة آدم وإمامة على « العين ، الصامت – شيئاً واحداً » ، فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام على فى ذلك الحين[٢] ، ثم يقول ماسينيون فى موضع آخر « وفى كل جيل يتعرف أولئك الذين يتجسدون ، الممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله ، وأولئك الذين يعترفون بالإمام الشرعى ومن ينكرون ، دورة بعد دورة – وهذه النظرية القائلة بدوام التصميم التاريخى ، وبالعود الدورى للنماذج الكتابية ، وقد ظهرت منذ سنة ٣٣ هـ. حينما أعلن صعصعة بن صوحان أن الإمام – وقد كان فى البدء آدم – يجب أن يتعرف آنئذ فى على[٣] . وقد أشار ماسينيون إلى مصدره هو والطبرى . وقد رجعت إلى الطبرى ، إلى نفس النصوص التى استخدمها ماسينيون . فلم أجد أبداً مايثبت فكرة ماسينيون لا من قريب ولا من بعيد . إن نصوص الطبرى تذكر أن معاوية بن سفيان كان يفتخر أمام وفد الكوفة – وفيهم صعصعة بأبيه أبى سفيان فقال « ولو ولد أبو سفيان الناس ، لما ولد إلا حازماً » فأجابه صعصعة « كذبت ، لقد ولد الناس من هو خير من أبيك ، فكان منهم المحسن والمسىء والبر والفاجر » ولم يذكر صعصعة أبداً إمامة على ، ولم يقرر أبداً أن إمامة على وإمامة آدم شىء واحد . بل لم يذكر علياً على الإطلاق . وما أعجب خيال ماسينيون .

وليس معنى هذا أننا ننكر على صعصعة الجانب الروحى فيه ، لقد كان رجلاً غارقاً فى حياة الروح بدون أدنى شك . وأننا نرى علياً فى وقعة صفين يبعثه إلى معاوية ، حين منع جيش على الماء ، . . . وذهب صعصعة إلى معاوية ووعظه . ولكن أصحاب معاوية أصروا على منع جيش على من الرى . وقال عبد الله بن أبى السرح « امنعهم الماء . . . منعهم الله – يوم القيامة . فقال صعصعة « إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر »[٤] . . . فالرجل إذن على إيمان مطلق بالإسلام ، فى حقيقته وفى مظهره . ولم يرد عنه غنوصية أو معرفة بهذه النظرية الشيعية الغالية المتأخرة ، عودة النماذج الكتابية ، وقد كان لهذه النظرية أثر فى التصوف الفلسفى – كما نعلم – ولكن لم يكن صعصعة بن صوحان من روادها الأوائل .

---

(١) الطبرى : تاريخ ج ١ ص ٢٩١٧ – ٢٩١٩ ، والاستيعاب حتى ص ١٩٧ ، وشخصيات قلقة فى الإسلام ص ٢٩ .

(٢) بدوى : شخصيات قلقة ص ٢٩ .

(٣) دكتور بدوى : شخصيات قلقة ص ٣٦ .

(٤) نصر بن مزاحم المنقرى : وقعة صفين (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون) ص ١٦ – ١٦١ .

ونحن نظفر عن صعصعة بن صوحان بخير فى كتاب صوفى مشهور وهو قوت القلوب . وألاحظ أن من يورد هذا الأثر هو الشعبى : فقد ذكر صعصعة لابن أخيه زيد : أنا كنت أحب إلى أبيك منك ، وأنت أحب إلى من ابنى . خصلتان أوصيك بهما ، فاحفظهما ، خالص المؤمن مخالصة ، وخالف الفاجر مخالفة ، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن ، وإنه لحق عليك أن تخالص المؤمن[١] » . ويعتبر أبو طالب المكى كلام صعصعة من أرق الكلام فى الأخوة فى الله ، والصحبة ، والمحبة للإخوان فيه .

٣- كميل بن زياد : صاحب الوصية الروحية :

وذهب على كما نعلم ، وبقى أصحابه الأولون ، فى أحياء الكوفة ورحباتها وقد عمها السكون القاتل ، يعيشون ذبل الشفاة ، مقترشى الجباة ، أذلاء فى نفوسهم . ولست أود أن أبحث الجانب الشيعى فى هؤلاء ، وإنما أريد أن أتتبع مشاركتهم فى إقامة الحياة الروحية فى الإسلام . وأرسل زياد بن أبيه حجر بن عدى وأصحابه من الكوفة إلى دمشق . وقتل معاوية حجراً وأصحابه ، فى مقتلة اهتز لها العالم الإسلامى ، وحركت قلب أم المؤمنين عائشة ، ونحن نعلم أنها كانت فى المعسكر المناهض لعلى . ولكن لم يمنعها هذا من أن تلوم معاوية . . . وقابل معاوية لومها باستخفاف . . . وساد الكوفة . . . بل العالم الإسلامى كله . . . الهدوء والخوف . . . وانقلب الكوفيون إلى العبادة وإلى الانزواء ولكن بدأ زياد بن أبيه وابنه بعده – عبيد الله – يأخذون الخناق على أصحاب على ، وما لبث هؤلاء أن قدموا أمثلة كبرى لتدعيم حياة الروح فى الإسلام وما فيها من فداء على مسرح الكوفة ، والمشاركة فيها أكبر مشاركة – كما قلت . ومن أدق الأمثلة على هذه المشاركة ، مثال كميل بن زياد النجفى . ويذكر ابن حجر « أنه كان من رؤساء الشيعة . وذكره المدائنى فى عباد أهل الكوفة »[٢] . وقد دعاه صاحب ميزان الاعتدال « بصاحب على رضى الله عنه » واختلف المحدثون فيه فبينما يذهب ابن حيان أنه كان من المفرطين فى على ، ممن يروى عنه المعضلات ؛ منكر الحديث جدًّا تتقى روايته ولا يحتج به ، نرى ابن سعد وابن معين يوثقانه[٣] » ولعل المعضلات التى كان يرويها عن على ، هى تلك اللمحات الإشراقية التى رواها الصوفية من بعد على لسان على ، مروية بواسطة كميل . ولقد أورد صاحب الحلية وصية على لكميل بن زياد[٤] . وقد كان على يصحبه دائماً إلى الجبان وقد تكلمنا عن هذه الوصية حين عرضنا لحياة على بن أبى طالب الروحية . بل نادى على – فيما يروى صاحب طرائق الحقائق – على

---

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ٤٤٤ .
(٢) ابن حجر : تهذيب ج ٨ ص ٤٤٧ – ٤٨٨ .
(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤١٥ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٧٩ – ٨٠ .

لسان كميل بن زياد بأدق التعبيرات الإشراقية « . . . الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة . . . . . وأنها النور الذى يشرق من صبح الأزل ، فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره . . . لا جرم بعد ذلك أن أصبح كميل بن زياد من « رجال السلاسل الصوفية ، وتتصل به سلسلة خرقة طريقة النور بخشية فى إيران . وبقيت أدعيته المشهورة يتلوها الشيعة فى مجموعة أدعيتهم (١) . وقد انتهت حياة كميل بن زياد بشهادته على يد الحجاج . وقد كان الحجاج متعطشاً لقتل أصحاب على ، وقد قال للحجاج قبل مقتله « ولقد خبرنى أمير المؤمنين أنك قاتلى » . وكان مقتله عام ٨٨هـ (٢) .

٤- ميثم التمار :

وكان ميثم التمار من خواص الإمام على . وكان أعجميًّا . ويقال إنه كان عبداً لامرأة من بنى أسد ، فاشتراه على منها وأعتقه . وقد بشره على بأنه سيموت مصلوباً . وعاش الرجل عيشة زهد وتنسك بعد وفاة صديقه وإمامه . وجاء عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة . . . أتى بميثم إليه وأمر بصلبه وقتله . . . وحين رفعوه على خشبته ، أخذ يحدث الناس بفضائل على وبنى هاشم . فقيل لابن زياد : قد فضحكم هذا العبد ، قال : ألجموه . فكان أول من ألجم فى الإسلام . فلما كان اليوم الثالث من صلبه ، طعن بالحربة ، فكبر ثم مات (٣) .

٥- رشيد الهجرى : رشيد البلايا :

وكذلك كان رشيد الهجرى ، وهو شخصية غامضة ذات أهمية كبرى فى تاريخ التشيع الأول وفى تاريخ التصوف . أما عن مكانته فى التشيع ، فقد ذهب مؤرخو الشيعة إلى أنه كان من وجوه أصحاب على ، وأن الإمام عليًّا كان يدعوه برشيد البلايا . وكان - فى رأى الشيعة - قد ألقى عليه علم البلايا والمنايا . فكان يلقى الرجل ويقول له : يا فلان بن فلان ، تموت ميتة كذا ، وأنت يا فلان - تقتل قتلة كذا ، فيكون الأمر كما قال . ومن الملاحظ أن الشيعة أرادت أن تضع مقامه بالنسبة لعلى ، كمقام حذيفة بن اليمان بالنسبة للنبى محمد ﷺ ، فإذا كان قد ألقى إلى حذيفة علم المنافقين ، بواسطة الرسول . فقد ألقى إلى رشيد علم المنايا ، بواسطة على .

ويذهب الشيعة أيضاً إلى أنه كان يتشكل فى الصور المختلفة ، وأنه اختفى فى عهد ولاية زياد بن

---

(١) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة ص ٦٢ ٪ ٢٧٤ .

(٢) البراق : تاريخ الكوفة ص ٣٢٤ .

(٣) البراق : تاريخ الكوفة ص ٢٩٨ .

أبيه ، فكان يدخل البيوت فلا يراه أحد ، بل يقبل على زياد نفسه فى صورة صديق لزياد شامى ، بحيث يقول له هذا الصديق ، وقد خشى أول الأمر دخوله عليه « أما إذا كان عندك من العلم ، مثل ما أرى ، فاصنع ما بدا لك ، وأدخل علينا كيف شئت » . وقد صيغت قصة الصوفى المتأخر قضيب البان (المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ) على هذه الصورة ، فقد كان أيضاً يتشكل فى الصور كيف يشاء .

وكان الإمام على قد ألقى إليه أنه سيقتل على يد دعى بنى أمية . وقال له « يا رشيد : كيف صبرك متى أرسل إليك دعى بنى أمية ، فقطع يديك ورجليك ولسانك » فقال رشيد « يا أمير المؤمنين آخر ذلك الجنة » فقال : « يا رشيد أنت معى فى الدنيا الآخرة » . وحين أتى عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة دعا رشيداً وطلب منه البراءة من على ، وكان فى استطاعة رشيد أن يتقى ، ولكن كان لابد له أن يحقق نبوءة الإمام ، فأبى أن يبرأ منه ، فقال : له ابن زياد « فبأى ميتة تموت » فقال له : أخبرنى خليلى أنك تدعونى إلى البراءة منه ، فلا أبرأ ، فتقدمنى وتقطع يدى ورجلى ولسانى . فقال : والله لأكذبن قوله . فقدموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه . فحملت ابنته قنوا أطراف يديه ورجليه . وقالت : يا أبتى : هل تجد ألماً مما أصابك . فقال : لا يا ابنتى — إلا كالرخام بين الناس . فلما احتملوه وأخرجوه من القصر ، اجتمع الناس حوله ، فقال : ايتونى بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة . وعلم بن زياد بالأمر ، فأرسل إليه الحجام ، حتى قطع لسانه . فمات[1] .

تلك هى القصة التى يذكرها الشيعة عن حياته وموته ، وهى تشبه إلى حد ما قصة الحلاج .

وقد اعتبره بعض المؤرخين غنوصيًّا قائماً . ويذكرون أنه سمع علياً على المنبر يقول : دابة الأرض تأكل بغيها ، وتحدث باستها . فقال رشيد الهجرى : أشهد أنك تلك الدابة : فقال له على قولاً شديداً . ويذكر الشعبى أنه ذهب إليه ، فاستمع إليه يقول : أتينا الحسن بعد موت على . فقلنا : أدخلنا على أمير المؤمنين . فقال : إنه قد مات . قلنا لا : ولكنه حى ، يعرف الآن من تحت الدثار . قال إذا عرفتم هذا ، فادخلوا عليه ولا تهيجوه » . ويذكرون أيضاً أنه ذهب للحج بعد موت على ، فقال لأبدأه بأمير المؤمنين . فأتى بيت على فقال لإنسان على الباب : استأذن لى على أمير المؤمنين . قال : أوليس قد مات . قلت : قد مات فيكم : والله إنه ليتنفس الآن نفس الحى . قال : أما إذا عرفت سر آل محمد فادخل . فدخلت على أمير المؤمنين وأنبأنى بأشياء تكون . فهو إذن يؤمن بالرجعة . وبلغ الخبر زياداً فبعث إلى رشيد وقطع لسانه ، وقتله[2] .

وسواء صحت رواية مؤرخى الشيعة فى رشيد الهجرى أو رواية مؤرخى السنة ، فإن حياة رشيد

---

(١) البراق : تاريخ الكوفة ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥١ ، ٥٢ .

الهجرى وآرائه قد ألقت ظلالها على التصوف فيما بعد . فالصوفية يذهبون إلى نسبة نوع العلم اللدنى إلى « الشيخ » يعرف به أقدار الناس ومصائرهم ، كما أن فكرة حياة « الشيخ » بعد الموت ومناجاته لأتباعه فكرة مقررة لدى الكثيرين من الصوفية .

٦- أبو صالح ماهان الحنفى :

ولكن ما تلبس مشاركة الشيعة الأوائل فى الحياة الروحية فى الإسلام أن تظهر بصورة واضحة لدى شخصية زاهدة من شخصيات الكوفة وهى شخصية أبى صالح ماهان الحنفى . وبينما أهملت كتب التصوف السنى ذكر رشيد الهجرى وميثم التمار ، ولم تعتبرهما من رجال التصوف ، أفردت مكاناً لأبى صالح . وكان أبو صالح من خاصة أصحاب على أيضاً . وبعد وفاة على ، أخذ الرجل يقضى حياته فى العبادة « ولا يفترض التكبير والتسبيح والتهليل » . . . وقد كان يقول « الحق ثقيل وابن آدم ضعيف والذكر ساعة بعد ساعة » وكان يعظ فيقول « أما يستحى أحدكم أن تكون دابته التى تركب ، وثوبه الذى يلبس ، أكثر ذكراً لله منه » وسئل عن أعمال القوم من السلف فقال « كانت أعمالهم قليلة ، وكانت سليمة[1] . ويبدو أن الرجل كان يحس بما سيصيبه من ألم وصلب وقتل على يد الحجاج ، فكان يردد « ما أبلى ما قالت ابنتى ، أأعافى فأشكر ، أو أبتلى فأصبر » . وكان الحجاج يفتش عن أصحاب على كما قلنا ، فيطلب منهم البراءة منه وسبه أو يقتل الشخص ، ويبدو أنه أبى . فأمر الحجاج به أن يصلب ، وحين رفع على خشبته ، كان يسبح ويهلل ويكبر .

وهنا يقف أبو صالح ماهان الحنفى موقفاً من أدق المواقف الروحية حقًّا ، سيعيده الحلاج فيما بعد . فقد اقترب منه أبو إسحق الشيبانى متفكراً وهو ينظر إليه ، فصاح ماهان فيه « تنح : يا ابن أخى لا تسأل عن هذا المقام » وسيردد الحلاج هذا فيما بعد — حين صلب وقطعت يداه . هذا أول مقامات التصوف . ويقترب منه عمار الدهنى مع غوغاء الناس ، فيصيح فيه ماهان « ياعمار وأنت فيهم » فذهب عمار وتركه . واحتمل الرجل على خشبته القطع والموت صابراً[2] .

صورة تكاد تكون متشابهة ، لما حدث للحلاج فيما بعد . وقد قتل الحلاج لغنوصيته ، أما أبو صالح ماهان الحنفى ، فقد قتل لإخلاصه لآل بيت رسول الله .

هذه صورة من صور الحياة الروحية لدى وجوه أصحاب على ، شاركوا فى الحياة الروحية فى الإسلام أكبر مشاركة ، وقدموا فى طرقات الكوفة وأسواقها مثلاً عليا للفداء ، ودخلت هذه المثل كما

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٤ ص ٣٦٤ - ٣٦٧ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٤٠ .

قلت فى أعماق الزهد ، ثم التصوف بمعنى الكلمة ، ولكن ما لبث التشيع أن تطور وافترق ، وأصبح لهؤلاء المتفرقين سمات خاصة تميزه عن الآخر ، ولكن شارك الجميع ، كما سنرى فى أعماق الحياة الروحية فى الإسلام وبالتالى فى الزهد والتصوف – ومن الملاحظ أن التشيع المعتدل أثر فى التصوف المعتدل ، وأثر التشيع الغالى فى التصوف الفلسفى الغنوصى – وينقدح التشيع المعتدل فى الكوفة فى طائفة التوابين ، كما يظهر فى الزيود . . . وكان لهاتين الطائفتين أثر كبير فى التصوف المعتدل ذى النزعة السنية ، أما التشيع الغالى – فقد أثر فى التصوف الفلسفى – كما سنرى بعد .

* * *

أما التشيع الإمامى ، بمعنى الكلمة ، وهو التشيع الذى أحاط بالأئمة وعباراتهم ، أو ما حملوا من عبارات – فلم يكن فى الكوفة ، وإنما ظهر فى المدينة ، ومن الأولى أن نعالجه حين نبحث فى الحياة الروحية فى مدارس الحجاز .

إن الحركة الشيعية الإمامية الوحيدة التى أثرت فى مجرى الحياة الروحية فى الإسلام - فى الكوفة – وبالتالى – فى الزهاد والصوفية هى حركة التوابين . كان هؤلاء التوابون من أصحاب الإمام على وعلى رأسهم الصحابى سليمان بن صرد . . . وكانوا قد تعهدوا للحسين بنصرته ، فلما أتى إلى مشارف الكوفة خذلوه ، وقتل ابن بنت رسول الله وحيداً فى الغلاة ، وانكفأ هؤلاء على العبادة والتبتل ، وعاشوا فى التوبة – نهاراً وليلاً ، ثم ما لبث أن تكونت أول جماعة روحية فى الإسلام ، تستند على نص قرآنى « فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلك خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم . إنه التواب الرحيم » وخرجوا إلى طرقات الكوفة ، وهم شيعة من البصرة والمدائن عانوا التجربة الروحية نفسها وهم جميعاً يرددون « أقلنا – ربنا – تفريطنا فقد تبنا » . ويعلق العلامة العراقى على هذه الحركة قائلاً « وتبين حركة التوابين مدى ما أثر قتل الحسين فى نفوس المسلمين ، حتى وجدنا هذه الطائفة تخرج دون قيادة ودون طمع فى ملك ودون تنظيم – لمجرد الانتحار والتكفير ببذل النفس [1] » ونحن نعلم بعد ذلك أنهم قتلوا جميعاً فى عين الوردة ، قبلوا الموت فى هدوء واطمئنان – وراحة نفسية » .

ولقد ذكرت من قبل – أنه كانت هناك حركة توابين أيضاً بين صوفية الكوفة من أهل السنة . . . . . والمهم أن نلاحظ هنا أن حركة التوابين هذه – سواء فى أوساط الشيعة أو أوساط السنة قد ارتبطت بآل البيت ، فتابت الحلقتان عن الحياة كلها . . . وانعكس هذا على من تلا هؤلاء من زهاد وصوفية . فكان مقام التوبة من أهم مقامات التصوف كما سنرى بعد .

---

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة . . ج ١ ص ١٠١ .

الفصل الخامس

التشيع الزيدى والحياة الروحية فى الإسلام

إن من الغرابة بمكان أن نقول : إنه انبثق عن التشيع الزيدى جانب روحى عاون على تدعيم الزهد ثم التصوف من بعده . إن مؤسس المذهب كان رجلاً من آل البيت ، اعتنق المذهب المعتزلى . ونحن نعلم أن المذهب المعتزلى مذهب عقلى ، لا يؤمن بالجوانب الروحية ، بل هاجمها ، واعتبر العقل المجرد وحده مقياس الأشياء جميعاً . حقًّا كان زيد بن على زاهداً كما كان المعتزلة ، ولكن لا نظفر منه بلمحات روحية أو اتجاه ذوقى . ثم مات فى ملحمة كبرى فى طرقات الكوفة ، أعادت إلى أذهان المسلمين ملحمة جده الأكبر الحسين بن على . فهل كانت هذه الميتة سبباً فى إذكاء حياة روحية لدى الزيود من أتباعه ، كما كانت سبباً فى اجتذاب الزهاد والعباد إلى مذهبه فسارعوا فى الالتفات حول كل حركة زيدية قامت بعد ذلك .

لقد رأى الدكتور الشيبى ، وهو يتحدث عن الصلات بين التشيع والتصوف « أن زيداً كان زاهداً شأن المتدينين المخلصين فى ذلك الوقت الذى انتشر فيه التصوف تعبيراً عن معارضة صامتة إزاء ما فرضه سليمان بن عبد الملك المتوفى سنة ٩٩ هـ وكذلك هشام بن الحكم (المتوفى سنة ١٢٥ هـ) من لبس الخز « وكان زيد يذكر الله فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع على الدنيا » وقد أدى هذا إلى أن أهل النسك كانوا لا يعدلون بزيد أحداً . . . ثم يرى الشيبى أن مجموعة من الزهاد التفوا حول زيد – كمنصور بن المعتمر الذى كان يدعو إلى الخروج مع زيد وسفيان الثورى الزاهد المشهور ، والزاهدان عبد الله بن عطاء وابن هرمز .

ويرى الشيبى أن الأئمة الزيديين – كانوا كزيد مجموعة من الزهاد المتقشفين بل كان منهم من يسمى بالصوفى كمحمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، كما كان محمد بن جعفر الصادق يخرج إلى الصلاة بمكة فى سنة ٢٠٠ بمائتى رجل من الجارودية وعليهم ثياب الصوف وسيماء الخير ظاهر . . . وكان هناك ثائر زيدى آخر يوصف بالصوفى ، وهو محمد بن القاسم لأنه كان يدمن لبس الثياب من الصوف الأبيض . ثم خرج ابن خالد الأحمر الزاهد المشهور مع إبراهيم بن

عبد الله بن الحسن فى حركة زيدية عنيفة بالبصرة (١).

ولكن كان أهم زهاد الزيدية جميعاً الحسن بن صالح بن حيى وأخوه على وأمها . وقد احتل الحسن بن صالح بن حيى مكانه الكبير فى كتب طبقات الصوفية فى العالم الإسلامى ، بل نرى عالماً حنبلياً كابن الجوزى يؤرخ له . وقد تكلمت عن الحسن بن صالح – كزيدى – فى كتابى « نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام الجزء الثانى (٢) ولسنا فى حاجة إلى عرض هذا الجانب من حياة الحسن بن صالح فى هذا الكتاب ، وأشرت هناك فى إيجاز إلى أنه عرف « بالعبادة والزهد » بل كان أكثر الناس إعراضاً عن « الرياسة ». ويذكر أن الحسن وأخاه عليا وأمها كانوا يقضون الليل فى العبادة ، وقد « جزءوا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان على يقوم الثلث ويقوم الحسن الثلث ثم ينام وتقوم أمها الثلث ، فماتت أمها ، فجزءا الليل بينهما ، فكانا يقومان به ، حتى الصباح ، ثم مات على ، فقام الحسن به كله » (٣).

كانت أسرة ابن حى كلها تعيش إذن فى التبتل والعبادة ، يتعاونون على العبادة بالليل لا ينامون ، وبالنهار لا يفطرون ، وكان يقال للحسن بالذات « حية الوادى » ويقصدون بهذا أنه لا ينام بالليل » .

وعاش الحسن كما عاش أخوه ، عيشة تجرد وفقر ، وكانا يرفضان العطايا ، وكان الخليفة المهدى على استعداد لشراء الرجل بأى ثمن ، حتى يترك زيديته ، ولكنه أبى ، وكان يعيش متخفياً ، وكان يقول « ربما أصبحت ، وما عندى درهم ، وكأن الدنيا كلها قد صيرت لى ، وهى فى كفى » وكان طفله يأتيه يطلب الطعام وليس لديه شىء ، فيعلله بشىء ، حتى يبيع خادمه غزل مولاته ، فيشترى شيئاً من الشعير ، تطحنه الخادم ، ثم تعجنه . وكان يتردد على المقابر ، كعادة العباد ، فيغشى عليه – ودخل السوق مرة ، فرأى هذا يخيط وهذا يصنع ، رأى الناس فى شغل عن ربهم بمعاشهم . فبكى (٤) . ثم قال لصاحبه : انظر إليهم يعللون حتى يأتيهم الموت » ويذكرنا هذا بموقف أبى يزيد البسطامى حين رأى الناس يتعللون بمعاشهم ، فاعتلى المئذنة ، وكبر عليهم أربعة . إنهم موتى فى حياتهم ، فكبر عليهم تكبيرة الموت .

وقد ترك الحسن بن صالح كلمات مأثورة فى أخلاق العباد « فتشنا الورع فلم نجده فى شىء أقل منه فى اللسان » ، « العمل بالحسنة قوة فى البدن ونور فى القلب ، وضوء فى البصر ، والعمل بالسيئة ، وهن فى البدن وظلمة فى القلب وعمى فى البصر » . . . ويرى أن « الليل والنهار يبليان كل جديد ، ويقربان

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ١٧٦ ، ١٨٦ .

(٢) النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٢ ص ١٩٢ / ١٩٤ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٧ ص ٣٢٨ ، وابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٨٧ / ٨٨ .

(٤) أبو نعيم : الحيلية ج ٧ ص ٣٢٨ / ٣٢٩ .

كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ووعيد . . . ويقول النهار : يا ابن آدم : اغتنمنى فإنك لا تدرى ، لعله يوم لا يوم لك بعدى ، ويقول له الليل مثل ذلك » وكان الفقه قد ازدهر فى أيامه ؛ ورأى الفقهاء يتزاحمون على أبواب الأمراء فكان يقول « لا تفقه حتى لا تبالى فى يد من كانت الدنيا . بل إن الشيطان ليستخدم هؤلاء الفقهاء موهماً لهم أنه يفتح لهم باب الخير ، ولكنه يريد باباً من أبواب السوء » .

ويعتلى الحسن بن صالح المئذنة لكى يؤذن ، فإذا به يصرخ ويبكى كما يبكى أصحاب أصل المصائب . . . بل يغشى عليه ، حتى يؤذن غيره . وقد كان الحسن بن صالح على صلات كبرى بزهاد عصره ، بسفيان الثورى الذى كان الحسن يدعوه بالشفاء ولكن سفيان قد كره فكرته فى الخروج على الإمام الظالم ، وكان سفيان ينكرها برغم المسحة الزيدية التى لازمته هو نفسه . ولكن صلاته الكبرى كانت بشيخ زهاد الشام أبى سليمان الدارانى وكان يقول عنه « ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه والخشوع من الحسن بن صالح بن حى ، قرأ ليلة « عم يتساءلون » فغشى عليه ، فلم يختمها حتى طلع الفجر [1] .

ولقد أثر الحسن بن صالح بن حى فى أحمد بن عيسى بن زيد ، وقد عاش أحمد بن عيسى إلى خلافة الرشيد ، « وتنسك وتزهد » وكان الزيدية يجتمعون إليه ، ونمى الأمر إلى الرشيد فأخذه وحبسه ، ولكنه « هرب من حبسه وتوارى » [2] .

كانت الزيدية إذن حركة زهد وتقشف ، وقد تكون « الزهد » كمصطلح حينئذ ، وكان له مراسمه وطقوسه ، فهل أثر الزهد الزيدى فيه . لا أرى هذا على الإطلاق ، لقد كان زهد الزيدية يشبه زهد الخوارج ، تقشف وورع ، وإغراق فى العبادة ، وفيما خلا الحسن بن صالح بن حى لا نظفر منهم أبداً بلمحات روحية أو بإشراقة قلبية ، كان الاعتزال العقلى يحكمه ، وفكرة الخروج تسيطر عليه . . . وما أبعد هذا عن الزهد كمصطلح وعن الزهاد كمجموعة . .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٧ ص ٣٢٨ .

(٢) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ١٨٣ .

الفصل السادس

التشيع الغالى فى الكوفة وأثره فى الزهد والتصوف

لقد حاولت من قبل – فى الجزء الثانى من نشأة الفكر – أن أكشف عن نشأة التشيع الغالى ومداه وتطوره ، وانتهيت إلى أن هذا التشيع الغالى كان نوعاً من الحب ، غلا فيه أصحابه ، حين رأوا ، عترة أهل البيت يتساقطون واحداً بعد واحد ، تحت سيوف الطغاة من بنى أمية ، ورأوا ذل الأئمة ، وانكسار قلوبهم ، يعيشون فى انكسار وشظف من العيش فى جنبات المدينة ، فقدموا لهم الحب الغالى ، وأحاطوهم بالأسطورة . . . هكذا بدأ التشيع الغالى ، بابا ولج فيه أحبة أهل البيت ، ثم ولج فيه – وكانت فرصة نادرة – الضاغنون على الإسلام من فرس ويهود ، وانقلب وتطور إلى أكبر مؤامرة على العقيدة نفسها – سواء أكانت سنية أم شيعية . وسأحاول أن ألمس هنا أثر هذا الغلو فى الزهد والتصوف ، وقد كان هذا الأثر – كما سنرى – كبيراً .

لقد نشأ التشيع الغالى – كما نعلم – وفى أول ظهوره – لدى امرأتين من نساء الكوفة هما هند بنت المتكلفة الناعطية وليلى بنت قمامة المزنية الناعطية . وبينما يسخر الجاحظ من ليلى الناعطية فى كتاب الحيوان، ويعتبرها – فى محاولة مضحكة – من البخلاء ، تراه فى البيان والتبيين يعتبرها من الناسكات والزاهدات فيقول فى باب ذكر النساك والزهاد « ومن نساء الغالية ، ليلى الناعطية والصدوف وهند [1] ، وقد بينت فى نشأة الفكر – لدى الصوفية فيما بعد – فكرة « الحزقة » .

وقد كانت هند وليلى من النساء الكيسانيات . وقد قيل : إن البداء قد ظهر فى بيتهما ، ونحن نتساءل: هل كان للبداء من أثر لدى الصوفية ؟ . ولا أرى هذا أبداً .

غير أن فكرة المهدى قد ظهرت – أول ماظهرت لدى الكيسانية من أتباع محمد بن الحنفية . ولفكرة المهدى عامة أثر كبير لدى طوائف الصوفية جميعاً أخذت صوراً مختلفة ، وتشوف لها الصوفية جميعاً . ولكننا نخطو خطوة حاسمة فنقول : هل يمكن أن تكون فكرة المهدى أساس فكرة الغوث » . هل صيغت فكرة الغوث بما لديه من قوة على التخفى والانتقال على صورة المهدى المختفى الذى يظهر لكل البشر من أتباعه بين الحين والحين ، هل أخذت فكرة المهدى من قصة الخضر القرآنى وصيغت

(١) الجاحظ : البيان والتبين ص ١ ج ٢٣٢ ، وانظر : نشأة الفكر ج ٢ ص ٧٥ .

على مثاله ، وأخذ الصوفية فكرة الغوث من المصدرين : المصدر القرآنى الأصيل فى قصة الخضر ، والمصدر الشيعى التابع للمصدر القرآنى فى فكرة المهدى . إن المسألة تحتاج إلى بحث أوسع . غير أن الدكتور كامل الشيبى يرى أن الفكرة ظهرت فى الحلاج – فأسبغت عليه المهدية ، ولكن هنا أيضاً مجال للتساؤل : هل كان الحلاج – حين ادعى المهدية أو حين نسبت إليه « المهدى » يتكلم باسم التصوف أو باسم التشيع ، إن صوفية عصره – وفى مدرسة بغداد بالذات – لم يدعوا المهدية أبداً ، وكان لهم الأتباع العديدون ، فهل كان الحلاج – يختلف عنهم – فى أنه كان إسماعيليًّا ، أو شيعيًّا إماميًّا ، ويلاحظ الدكتور كامل الشيبى نفسه أن الحلاج كان معاصراً لأحد وكلاء المهدى الشيعى وأنه كان يدعى بابيته [1] .

وظهرت فكرة الرجعة فى هذه الأثناء . فهل أثرت هذه الفكرة أيضاً فى نظريات الصوفية ؟ . لا أجد لها أثراً بعد – وإن كان الشيبى يرى أن الرجعة قد دخلت التصوف بكل تفاصيلها حتى ما يتصل منها بالقيامة الصغرى والقيامة الكبرى . ووضع « ابن عربى » مثالاً لها فى تفسيره للحاقة « هى الساعة الواجبة الوقوع التى لا ريب فيها . إن أريد بها القيامة الصغرى . ويسمى النبأ العظيم القيامة الكبرى [2] . غير أنه ينبغى أن نأخذ المسائل بحذر ، إن ابن عربى يستخدم كل مصطلح شيعى وغير شيعى فى تأييد نظرية وحدة الوجود التى لونت مذهبه إن فى تفصيلاته وإن فى كلياته . ثم إن القيامة الصغرى والقيامة الكبرى متصلتان بعقيدة الغيبة الشيعية الاثنى عشرية أكثر من اتصالها بعقيدة الرجعة عامة عند الكيسانية . وإننى لا أجد أبداً عقيدة الرجعة بمعناها العام أو بمعناها الكيسانى لدى الصوفية إطلاقاً .

وأنتقل الآن إلى عقائد الغلاة الأخرى :

(١) الإمامة : لقد أثرت فكرة الإمام فى شكلها الغالى المنبثق من الكوفة ، أو شكلها المعتدل المنبثق من المدينة فى التصوف الفلسفى بلاشك – وذلك منذ القرن الثالث الهجرى . استخدم الغلاة والمعتدلون مصطلح الإمام ولم يستخدمه الصوفية ، بل استخدموا كلمة « الولى » ولم تنسب كلمة « الولى » إلى واحد من الأئمة ، اللهم إلا مرة واحدة نسبت فيها الكلمة إلى الإمام الأول على ، فذكر أنه « على ولى الله » ثم استخدمت كلمة الولاية منسوبة إلى الأئمة منذ القرن السادس . ولكن الشيعة الغالية فى الكوفة وكذلك الشيعة الإمامية فى المدينة نسبت إلى الإمام عنصرين : عنصراً كوزمولوجيًّا أى وجوديًّا ، وعنصراً إبستمولوجيًّا ، أى عنصر معرفة . وقد انتقلت هذه النسبة إلى التصوف الفلسفى

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة : ج ١ ص ٢٠ .

(٢) الدكتور الشيبى : ج ١ ص ١٢٠ .

منذ القرن الثالث الهجرى . فنسب إلى شيوخ الصوفية ، وإلى ما أسموه بقطب الغوث الجانبين أيضاً ، الكوزمولوجى والأبستمولوجى . فكما وجد الكون للإمام ، وإليه تدبيره وتصريفه ، كذلك الأمر بالنسبة للشيخ أوللقطب ونشأة فكرة النور المحمدى حول الإمام جعفر الصادق ، ثم استخدمها الغلاة أشنع استخدام ، وانتقلت إلى التصوف .

وبينما نسب للإمام المعرفة ، واعتبر مصدر العلم فى الوجود ، فكذلك نسب للشيخ المعرفة . حقًّا : إن معرفة الإمام معرفة متوارثة ، متلقاة من الإمام الذى سبقه ، ولكن معرفة الشيخ لدنية ، من الله إلقاء وانقداحاً ، إن الأولى يصل إليها الإمام بالوصية ، والثانية يصل إليها الشيخ بالاجتهاد والاعتمال . ولكن المذهبين ، الصوفى والشيعى ينسبان للشيخ والإمام : نفس العلم .

وهنا نأتى إلى طبيعة العلم عند الاثنين . فالعلم الصوفى سرى لا يطلعه الشيخ إلا لمريديه ، وقد سبقهم الغلاة فى هذا . وبينما تذهب الإمامية إلى أن هذا العلم خاص بالإمام ، ذهب الغلاة إلى أن هذا العلم « ممكن » أيضاً لأتباع الإمام . ولقد أدى هذا إلى عملية « رفع » كثير من هؤلاء الغلاة إلى مقام الإمام نفسه . وبهذا خرجوا على الطبيعة الأبستمولوجية للإمام ، ولم يعد خاصة به . ولهذا أعلن البعض منهم فكرة « الاسم الأعظم » وأن من عرف هذا الاسم ، أحيا وأمات (١) .

ومن العجب أن تدخل فكرة الاسم الأعظم فى عقائد الصوفية ، وما زالت حتى الآن . ومن أوائل من نسب إليهم فكرة الاسم الأعظم بين الصوفية هو إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦٢) ، وكانت الوسيلة لدى الغلاة فى معرفة الاسم الأعظم هو معرفة السحر والنيرنجات (٢)، ثم حاول البعض منهم معرفة علوم الصنعة ، وقد نسبت علوم الصنعة إلى مجموعة من الأفراد أطلق عليهم اسم الصوفى – ومن الأمثلة على هذا جابر بن حيان الكيمائى ، فقد عرف باسم جابر بن حيان الصوفى ، كما كان الصوفى ذو النون المصرى على معرفة أيضاً بالطلاسم والنيرنجات والسحر والتنجيم .

وإننا نعلم أن الشيعة – غلاة ومعتدلة – وضعوا المبدأ المشهور « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » وأثر هذا فى الصوفية فى نظرية الشيخ والمريد « وأنه من لا شيخ له ، لا دين له » .

وقدم الغلاة من الشيعة فكرة التأويل ، وقد سبقهم إليها الشيعة المعتدلة ، ولكنهم تغالوا فيها ، ورأوا أن للآيات باطناً لا يعلمه سوى الإمام وخاصته . ودخلت الكبالا اليهودية فى عقائدهم ، ففسروا الآيات القرآنية فى ضوء منهج القبالا . وسنرى الصوفية الفلسفية يفعلون هذا وبخاصة الحلاج . أعلنوا أن للآيات ظاهراً وباطناً . وأخذوا يفسرون هذا الباطن – كما يحلو لهم مذهبهم الفلسفى . ودخلت

---

(١) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ٩٤ و٩٦ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٢ ص ١٤٩ .

الإسرائيليات عامة فى النظريات الغالية ، كما دخلت الغنوصات وانتقلت إلى التصوف الفلسفى .

ثم نأتى إلى قصة فكرة المعراج . ونحن نعلم أن القرآن قرر معراجاً خاصًا للرسول محمد ﷺ ، ولكن سرعان ما يعلن أبو منصور العجلى أنه عرج به إلى السماء ، وأن الله مسح على رأسه ، وقال له بالسريانية : « أى بنى – انزل فبلغ عنى » . وانتقلت الفكرة للصوفية ، فأعلنوا عن معراج للنفس . وإن من الواضح أن معتدلة الصوفية قرروا أن هذا المعراج هو تصفية نفسية أخلاقية ، بينما ذهب أصحاب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود إلى نوع من المعراج يختلف أشد الاختلاف عن الصورة القرآنية للمعراج ويقترب من الصورة الشيعية الغالية .

ولقد كان سمة الغلاة أنهم فيما يقول المؤرخون « تنمسوا بالزهد وأظهروا التقشف » بحيث يقول ابن الأثير « إنهم تعلموا الشعبذة والنيرنجات والنجوم والكيمياء فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد [١] » . ويذكر ابن حجر أن المغيرة تعلم السحر وكان ساحراً [٢]. وكان سبئيًا وصاحب نيرنجات [٣]» . بل إن عبد الله بن معاوية نفسه كان يظهر الزهد ويلبس الصوف . فغلاة الشيعة إذن كانوا من أوائل من لبسوا الصوف ، وأظهروا التزهد .

أما بعد : فإن الصلات بين التشيع الغالى فى الكوفة وبين التصوف الفلسفى وثيقة إلى حد كبير ، وبخاصة حين ظهر أبو الخطاب الأسدى ، وتلته فرق الإسماعيلية ، ودخلت فكرة الإمام والوصفاء والنقباء والحجج وانعكست إلى حد كبير على فكرة الغوث والأقطاب والأبدال عن الصوفية الفلاسفة . ولقد وضح العلامة العراقى الدكتور كامل الشيبى هذه الصلات فى كتابيه الممتازين « الصلة بين التصوف والتشيع » والفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى . ولكننى أود أن أذكر أن هناك دائماً كما سنرى فيما بعد – تصوفاً معتدلاً وتصوفاً غالياً . التصوف الأول – يستند على القرآن والسنة وسيرة صحابة رسول الله ﷺ من جهة ، وأئمة آل البيت من جهة أخرى ، وسنرى ، أن هذا التصوف كان بداية لعلم نفس الإرادة ولعلم أخلاق . والتصوف الثانى – هو التصوف الغالى أو الفلسفى ، وقد اتخذ كل مادة فلسفية وغير فلسفية وتأثر بالتشيع الغالى ، كما تأثر بالقبالا اليهودية وبالمسيحية وبالمذاهب الغنوصية شرقية وغربية . وبينما صب الأول تياره فى الغزالى ، صب الآخر مستنقعاته فى محيى الدين بن عربى ، والتصوف الإشراقى الإيرانى ممثلاً فى السهروردى المقتول ومدرسته .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١ .

(٢) ابن حجر : لسان الميزان ج ١ ص ٧٥ – ٧٨ .

(٣) الطبرى : ج ٣ ص ١٤٩ .

الفصل السابع

ظهور كلمة الصوفى كمصطلح فى الكوفة

ظهرت كلمة الزهد – كما رأينا – كمصطلح – فى الكوفة ، ودارت بالذات حول سفيان الثورى ، وأتباعه من بعده ، ثم انتشرت فى العالم الإسلامى وسما على مجموعات العباد ، الذين ينضوون تحت لواء شيخ من المعاصرين لسفيان كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وغيرهما . وكان من سمات هؤلاء الزهاد – إجمالاً – لبس الصوف ، وقد رأينا كيف لبس بعض عباد البصرة الصوف ، ونهاهم المشايخ عن هذا إظهاراً للشهرة ، كما لبس فرقد السبخى الصوف ، ونهى عنه أيضاً بأنه تشبه بالنصارى . ونهى سفيان الثورى الإمام جعفراً الصادق للبسه الخز ، فأراه الصوف تحت الخز ، حتى يتجنب الشهرة . ولكن ما لبثت كلمة الصوفى ، والتصوف ، أن أطلقت على مجموعة العباد والزهاد : رواد الحياة الروحية فى الإسلام .

وقد شغل الباحثون بالبحث فى أصل الكلمة ، وقد تكلمنا عن مختلف الآراء فى أصلها فى الفصول الأولى من هذا الكتاب . ثم شغلوا أيضاً بتوقيت ظهورها ، وعلى من أطلقت فى أول الأمر ، وقد رأينا الكلمة أطلقت على عدد من العباد فى البصرة والكوفة ، ولكن المهم أن نبين متى أطلقت كمصطلح على فرد أو أفراد ، ثم جمع هؤلاء الأفراد ارتباط معين ، أو جماعة معينة . ويرى بعض الباحثين أيضاً أن الكوفة كانت منشأ كلمة التصوف كمصطلح . ويرى الدكتور كامل الشيبى بأن « الباحثين مختلفون فى من هو أول من تسمى بالصوفى ، وتدور أخبارهم فى هذا الشأن حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين هم جابر بن حيان وأبو هاشم الصوفى وعبدك الصوفى [1] » ولست أرى هذا ، فقد أطلق الاسم – كما قلت – على عدد كبير من العباد من قبل . ولكن المشكلة هل أطلق على هؤلاء الثلاثة بمعنى خاص ، هو طريق التصفية بما فيه من مقامات وأحوال ، وانبثاق النظريات ، بالإضافة إلى الطريق العملى – وهو الزهد . أليس من الأولى أن نضع المشكلة فيما يأتى :

إن الكلمة أطلقت أول الأمر – فيما يرجح – كمصطلح على طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : هى طائفة أهل الصنعة ، والصنعة هى معرفة الكيمياء والسحر والطلاسم ، ويمثل

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة ج ص ٢٨٦ .

هذه الطائفة – جابر بن حيان .

الطائفة الثانية : هى طائفة الزنادقة ، وكان الزنادقة يظهرون التقشف والزهد ، ويعيش البعض منهم معيشة نباتية ، فيمتنعون عن أكل الحيوان .. إلخ .

الطائفة الثالثة : هى طائفة سنية ، اتخذت الصوف علماً ووسما لها ، وسميت هذه الطائفة – تبعاً لهذا – باسم الصوفية ، ويمثلها أبو هاشم الصوفى .

وسنلقى نظرة عامة على الطوائف الثلاث :

١– الطائفة الأولى : طائفة أهل الصنعة :

مصطلح الصوفى والكيميائيون :

لقد رأينا أن الغلاة من الشيعة كانوا يستخدمون السحر والطلسمات والنيرنجات ، ويحاولون أن يموهوا على العوام بكل هذا . وقيل إن البعض تعلموا من اليهود وغير اليهود . وكان لابد لهؤلاء الغلاة – وهم يموهون بهذه الأعمال شبه الخارقة أن يظهروا للعوام « الزهد والتقشف ولبس الصوف » . ونحن نعلم أن السحرة منذ عهد مبكر فى تاريخ الإنسانية ، كانوا يقومون قبل مزاولة سحرهم بأنواع من الطقوس والتجرد ومحاولة الاتصال بعالم الروح وبالروحانيات . . . إلخ . ومن ثم ورد اسم جابر بن حيان الكيميائى موسوماً بكلمة « صوفى » بل يذهب بعض الباحثين إلى أن جابراً كان أول من تسمى باسم صوفى . أما اسم جابر الكامل فهو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الطرسوسى الكوفى ، ولكنه عرف باسم الصوفى . ويذكر ابن النديم – الخراسانى – (١) . أما القفطى فيذكر « جابر بن حيان الكوفى – كان متقدماً فى العلوم الطبيعية ، بارعاً منها فى صناعة الكيمياء ، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة ، وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً للعلم الباطن ، وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام ، كالحارث بن أسد المحاسبى ، وسهل بن عبد الله التسترى ونظرائهم . . . وذكر محمد بن سعيد السرقسطى المعروف بابن المشاط الاصطرلابى الأندلسى أنه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً فى عمل الاصطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها (٢) » . أما ابن خلدون فيوضح لنا حقيقة الرجل توضيحاً ، لم ينتبه إليه الباحثون ، فهو يذكر « ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة فى هذه الملة ، فتصفح كتب القوم ، واستخرج الصناعة ، وغاص فى زبدتها واستخرجها ، ووضع فيها غيرها من التآليف ، وأكثر الكلام فيها ، وفى صناعة السيمياء لأنها من توابعها ، لأن إحالة

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٩٨ ، ٤٩ .

(٢) القفطى : أخبار الحكماء ص .

الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية ، لا بالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر ، كما نذكره فى موضعه [١] » .

إذن كان جابر بن حيان فى أول أمره ساحراً ؛ وكان من سمات السحر التحلى بقوة نفسية ، واستعداد روحى معين ، والنص واضح فى أن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية . . . وكان السحر منتشراً فى الكوفة ، وكان المغيرة بن سعيد البجلى (المتوفى عام ١١٩ هـ) من غلاة الشيعة يدعى السحر وكان ساحراً . بل يذكر الأعمش المحدث عنه أنه كان يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور ويقول ابن قتيبة إنه كان صاحب نيرنجات ، وأنه تعلم السحر من يهودية تعيش بالكوفة [٢] » . ويذكر ابن قتيبة أن الغلاة « تعلموا الشعبذة والنيرنجات والنجوم والكيمياء — فهم يحتالون على كل قوم ، بما يتفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد »[٣] .

يتبين لنا من هذا كله أن السحر كان منتشراً فى أوساط الكوفة ، فإذا صح أن ميلاد جابر بن حيان كان فى حدود (١٢٠ هـ) فإننا نستنتج ببساطة أنه كان يعيش فى وسط ملىء بالسحر ، انتشر فيه ، واستخدمه زعماء الغلاة للتمويه على العامة ، ولنشر آرائهم ، وكان من طبيعة مزاولة السحر القيام بشعائر وطقوس ، وتصفية النفس والتزهد . ومن العجب أن يأتى مسلمة بن أحمد المجريطى — إمام أهل الأندلس فى التعاليم والسحريات — فيكتب كتاباً فيها يسميه « غاية الحكيم » والحكيم ترجمة للكلمة اليونانية « سوفى » فهل كلمة صوفى التى نسبت إلى الساحر الأول « جابر بن حيان » هى سوفى اليونانية ؟ ثم أشبعت السين فصارت صاداً ؛ كما يذهب البيرونى من الأقدمين والبعض من المحدثين : لا أعتقد هذا . وإنما أعتقد أن جابر بن حيان لبس الصوف تزهداً ، وكان الصوف لباس مجموعة الصوفية من المتزهدين ، وكان لا بد أن يفعل هذا أمام العامة . . . ثم لا يقدح هذا فى أن الكلمة أطلقت فيما بعد على مجموعة الصوفية ، سواء أكانوا من أهل السنة أم من الصوفية الغنوصية . ويختلف الأولون عن الآخرين بأن صوفية أهل السنة يؤثرون فى أحوال العالم بكراماتهم ، لا من لدن نفسه ولا بقوته النفسية وبإمداد الأرواح الخفية من الشياطين . ويعبر ابن خلدون عن هذا تعبيراً دقيقاً فيقول « وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً فى أحوال العالم ، وليس معدوداً من جنس السحر ، وإنما هو بالإمداد الإلهى ، لأن طريقتهم ونحلهم من آثار النبوة ، ولهم فى المدد الإلهى حفظ على قدر حالهم وإيمانهم ، وتمسكهم بكلمة الله ، وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر ، لا يأتيها ، لأنه متقيد

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ٤٩٧ .

(٢) النشار : نشأة الفكر الفلسفى الجزء الثانى ص ٩٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ١٥١ .

فيما يأتيه ، يذره للأمر الإلهى ، فما لا يقع لهم فيه إلا بإذن إلا يأتونه بوجه ، ومن أتاه منهم ، فقد عدل عن طريق الحق ، وربما سلب حاله [١] » .

هل توقف جابر بن حيان عند السحر ، فكان فقط كبير « السحرة » يبدو أنه انتقل إلى علم قريب من السحر ، وهو الكيمياء أو علم الصنعة ، وكانت الصنعة شغل هؤلاء الذين حرموا الجاه والحكم والمنصب ، فكان لابد أن تنتشر فى أعماق الكوفة أيضاً ، باحثين عن الأكسير ، ويعرف ابن خلدون هذا العلم بأنه « علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الذى يوصل إلى ذلك ، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها . ولعلهم يعثرون على المادة المستمدة لذلك ، حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات ، فضلاً عن المعادن ، ثم يشرح الأعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل ، مثل حل الأجرام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس ، وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة ، وأمثال ذلك ، وفى زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الأكسير . وأنه يلقى منه على الجسم المعدنى المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس ، بعد أن يحمى النار ، فيعود ذهباً إبريزاً ويكنون عن ذلك الأكسير إذا ألغزوا فى اصطلاحاتهم « بالروح » وعن الجسم الذى يلقى عليه « بالجسد » .

ولقد نقلت النص كاملاً لكى يتبين للقارئ حقيقة هذا العلم الذى انتشر فى العالم الإسلامى ، والذى شغل به الناس جميعاً حتى إن بعض المؤرخين يذكرون خطأً أن الإمامين الغزالى وفخر الدين الرازى قد شغلا به . على أن ابن خلدون يرى أن إمام المدونين فى هذا العلم هو جابر بن حيان حتى إنه يختص به ، فيسمون علم الصنعة وعلم الكيمياء باسم « علم جابر » ويذكر أن له منها سبعين رسالة ، كلها شبيهة بالألغاز ، وأنه لايستطيع أحد أن يفتح ما أغلق منها ، سوى من قرأها كلها .

ثم يذكر ابن خلدون أن مسلمة المجريطى ، من حكماء الأندلس ، (القرن الثالث الهجرى) كتاب فيها أيضاً كتابه الذى سماه رتبة الحكيم أو جعله قريباً لكتابه الآخر فى السحر والطلسمات والذى قلنا من قبل إنه سماه غاية الحكيم . ويذكر ابن خلدون أن مسلمة يقول « إن هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ، ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة [٢] .

ومن العجيب أيضاً أن مسلمة يستخدم أيضاً فى هذا الكتاب كلمة الحكيم ، والحكمة . وقد قدم لنا ابن خلدون رسالة كتبها أبو بكر بن بشرون لأبى السمح وكلاهما من تلاميذ مسلمة ، وتشرح الرسالة

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ٥٠٢ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

حقيقة هذه « الصنعة » ويعلق ابن خلدون على الرسالة « والذى يجب أن يعتقد فى أمر الكيمياء وهو الحق الذى يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرف فى عالم الطبيعة ، إما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيرة ، أو من نوع السحر إن كانت النفوس شريرة فاجرة ، وأما الكرامة فطاهرة ، وأما السحر ، فلأن الساحر كما ثبت فى إمكان تحقيقه يقلب الأعيان المادية بقوته السحرية ، ولابد له مع ذلك من مادة يقع فعله السحرى فيها ، كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب ! ، ولعل من نوع الكيمياء الأول – كيمياء الخير – كيمياء السعادة للغزالى ، ومن النوع الثانى – كيمياء جابر بن حيان . وابن خلدون يذهب إلى هذا ، وهو هنا ينسب كلمة الحكيم إلى جابر فيقول « والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم ، إنما نحوا هذا المنحى ، ولهذا كان كلامهم فيه ألغاز حذرا عليها من إنكار الشرائع على السحر وأنواعه ، لا أن ذلك يرجع إلى الضنانة بها ، كما هو رأى من لم يذهب إلى التحقيق فى ذلك » ويوجه ابن خلدون أنظارنا إلى أن مسلمة سمى كتابه فى الصنعة والكيمياء برتبة الحكيم ، بينما سمى كتابه فى السحر والطلسمات بغاية الحكيم ، والغاية أعم ، والرتبة أخص . « إن مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية » ولذلك يقرر ابن خلدون – إن مدارك هذا الأمر ليس من العلوم الطبيعية (١) .

ولست أخوض هنا – كما قلت – فى علم الصنعة ، وإنما أود فقط أن أشير إلى أنها ارتبطت هى والسحر والطلاسم والنيرنجات بأشخاص أعلنوا « التزهد ولبسوا الصوف » وليس هناك من حاجة إلى إنكار وجود جابر ابن حيان كشخصية تاريخية حقيقية . ولقد تنبه إلى الشك فى حقيقته وهو يؤرخ له مؤرخ العلم العربى القديم « ابن النديم » ، فقال : « هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفى – المعروف بالصوفى » ثم يذكر اختلاف الناس فى أمره ، فالشيعة تدعى أنه من كبارهم وأحد الأبواب ، وأنه كان صاحب جعفر الصادق ، وأنه كان من أهل الكوفة ، بينما يدعى الفلاسفة أنه كان منهم ، وأنه كتب فى الفلسفة والمنطق ، وترك فيها مصنفات .

وزعم أهل صناعة الذهب والفضة « أن الرياسة انتهت إليه فى عصره ، وأن أمره كان مكتوماً » وزعموا أنه كان يتنقل فى البلاد لا يستقر به بلد خوفاً على نفسه من السلطان ، ثم إنه كان فى جملة البرامكة ومنقطعاً إليهم ، ومتحققاً بجعفر بن يحيى . وأن من ذكر أن سيده هو جعفر إنما عنى البرمكى لا الصادق . ويذكر ابن النديم أيضاً أن بعض الثقات ممن كان يتعاطى الصنعة يقرر أنه كان ينزل فى شارع باب الشام فى درب يعرف بدرب الذهب ، وأن أكثر مقام جابر إنما كان بالكوفة ، لطيب هوائها ، وأنه وجد فى بيته بعد زمن « هاون به ذهب » ثم يذكر ابن أصيبعة الرأى الآخر الذى ينكر

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٥٣ – ٥١٤ .

وجود جابر بن حيان كحقيقة تاريخية فيقول : « ذهب جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين ، إلى أن هذا الرجل ، يعنى جابر ، لا أصل له ولا حقيقة » وقال البعض الآخر إنه ما كتب كل هذه الكتب ، وإن كان له حقيقة إلا كتاب الرحمة . وإن بقية الكتب إنما صنفها غيره وخلوه إياها . ويرد ابن النديم على هذا منكراً « وأنا أقول إن رجلا فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوى على ألفى ورقة ، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً وإما معدوماً . ضرب من الجهل ، وإن ذلك لا يستمر على أحد . . . وأى فائدة فى هذا ، وأى عائدة » ثم يقرر أن « الرجل له حقيقة » وأمره أظهر وأشهر ، ومصنفاته أعظم وأكثر ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة وكتب فى معان شتى من العلوم . . . » ثم يذكر أن الرازى يقول فى كتبه المؤلفة فى الصنعة . قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان [١] » حقًّا إن ابن النديم لا يعطى تعليلاً لنسبة كلمة صوفى إلى جابر بن حيان ، وبالتالى إلى صلة الكيميائيين بالتصوف ، ولكنه عرض الآراء المختلفة التى نستطيع بقليل من النقد الخارجى والداخلى لها أن نتبين حقيقة الرجل .

لقد كان الرجل من الدعاة المكتومين الذين ينتقلون فى البلاد – فى العهد الأموى – خوفاً من السلطان . وهنا نتساءل : إلى أى الدعاة المكتومين هؤلاء كان ينتسب جابر بن حيان ؟ كان أهم الدعاة المكتومين فى هذا العصر فى العراق – أى الكوفة – هو أبا ميسرة أبا رباح النبال مولى الأزد وكبير دعاة أبى هاشم بن محمد بن الحنفية وصديقه وتابعه . ونحن نعلم أن جابر بن حيان لقب أيضاً بالأزدى ، فهو أيضاً مولى من موالى الأزد . فكانت أسرة جابر بن حيان إذن من الأبى الهاشمية ، وكان الغنوص يستشرى فى هذه الطائفة ويعتصرها اعتصاراً ، وفى الوصية الغنوصية الغريبة التى لفظ بها أبو هاشم حين موته لمحمد بن على العباسى ، نراه يطلب منه « ثم هذا الرجل ميسرة ، فاجعله صاحبك بالعراق ويذكر له أيضاً « وهؤلاء رسله إلى خراسان وإليك [٢] » . فكان ميسرة إذن قد أقام حلقة من الدعاة المكتومين فى خراسان نفسها . وانضم ميسرة إلى العباسيين ، بعد أن سم سيده ، بل حاول أيضاً أن يضم الجناحية [٣] ، وقد كان قد انضم إليها فى الكوفة إلى العباسية . لقد كان ميسرة من أكبر رجال الحركة الشيعة الأبى الهاشمية ، بل كان مؤسس الراوندية الحقيقى . وقد انتشر دعاته فى الكوفة ، وفى بطون الأزد ، كما انتشرت فى خراسان .

ونحن نعلم أنه فى عام ١٠٠ هـ – واتباعاً لوصية أبى هاشم أرسل محمد بن على بن عبد الله بن عباس

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٩٩ ، ٥٠٠

(٢) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ١١٥ .

ميسرة مولى الأزد إلى العراق » ومحمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان ، فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرسو غرساً »(١) وهنا تقابلنا لأول مرة شخصية حيان العطار الكوفى الخراسانى ، وإضافته إلى العطارة ، يرجح نسبه غير العربى ، فمن الأولى أن يقال إذن إنه كان — كميسرة — من موالى الأزد — على أية حال — إننا نكون قد عثرنا على أول ذكر للأصل التاريخى « لحيان العطار » الأزدى أو مولى الأزد الكوفى الخراسانى ، أو بمعنى أدق نكون قد عثرنا على والد جابر ابن حيان . وكانت رحلة هؤلاء فى عهد عمر بن عبد العزيز . ثم ما نلبث أن نجد ذكراً لرسل أبى رباح ميسرة داعية بن هاشم فى زى التجار ، ودعاهم سعيد بن عبد العزيز والى يزيد بن عبد الملك على خراسان عام ١٠٢ ، حين شك فى أمرهم وسألهم عن حالهم « فقالوا نحن تجار ، فخلى سبيلهم ، فخرجوا من خراسان »(٢) ويعنى هذا أن حيان العطار قد تردد مرة ثانية على خراسان .

وفى عام ١١١ ظهر سليمان بن كثير الخزاعى وجماعة معه بخراسان يدعون إلى بنى هاشم ، وظهرت دعوتهم وكثر من يجيبهم . ثم قدم داعية بنى العباس المشهور بكير بن هامان ، وكان ظهوره نقطة تحول فى الدعوة . انتشرت كالهشيم ، وأجابه خلق كثير ، إلى خلع بن أمية وبيعة بنى هاشم . ثم حين حضرته الوفاة ، استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال . . . انتشرت الدعوة انتشاراً كبيراً فى هذه السنة ، وتولى ولاية خراسان أسد بن عبد الله القسرى ، فبلغه خبرهم ، فأخذ جماعة منهم فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم (٣) . فهل كان حيان العطار من جملة من قتلوا . . . لا يظهر حيان العطار فى ذكر دعاة العباسيين بعد ولكننا نظفر بنص يورده كل من الطبرى وابن كثير وهو أن حيان العطار هو خال إبراهيم بن سلمة (٤). « وكان إبراهيم بن سلمة من كبار دعاة العباسيين ورجالهم . وقد عرض عليه إبراهيم الإمام العباسى أن يكون أمير الشيعة فى خراسان ، فأبى (٥) . ثم يظهر بن سلمة فى الكوفة حين وصول أبى العباس السفاح إليها . وكان من كبار رجال الدولة . ويعبر عنه ابن كثير بأنه هو رجل بخدم بنى العباس (٦) .

ننتهى من هذا كله أن جابر بن حيان ولد فى بيئة عباسية وأنه كان يعد من خاصة جعفر البرمكى ، والبرامكة . وإننا نجد فى قائمة كتبه — مجموعة مهداة إلى البرامكة ، كتاب إلى على بن إسحق البرمكى ،

---

(١) النشار : نشأة الفكر ج ٢ ص ٣٤٥ ، واليعقوبى تاريخ ج ٣ ص ٥٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٥٦ .

(٣) ابن كثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٣٦ ، ١٤٤ .

(٤) الطبرى : تاريخ الملوك والأمم ج ٨ ص ١٣٥ ، وابن كثير الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٥٣ .

(٥) ابن كثير : الكامل ج ٥ ص ٣٨٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٥ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

وكتاب تلين الحجارة إلى منصور بن أحمد البرمكى ، وكتاب الصناعة إلى جعفر بن يحيى البرمكى بل يذكر ابن النديم بين أسماء الفلاسفة الذين تكلموا فى الصنعة « يحيى بن خالد بن برمك » ص ٤٩٧ وهنا يحصل إشكال : كيف يكون تلميذاً لجعفر الصادق ، وأن يذكر فى كتبه أنه تلقى علمه عن جعفر الصادق ، بينما لا تذكره كتب الشيعة الإمامية أو الاثنى عشرية . وفى الحقيقة أنه لم يكن من الشيعة الإمامية الفاطمية . وأما ما فى كتبه من إشارات إلى جعفر الصادق ، فإنما هى زيادات وإضافات من الإسماعيلية فيما بعد . ومن المؤكد أن رسائل جابر بن حيان [١] التى نشرها كراوس ليست لجابر بن حيان قطعاً . إن فيها منهجاً تجريبيًّا لم يعرفه عصر جابر بن حيان ، وإنما تكون شيئاً فشيئاً لدى علماء الفقه ، ثم طبق فى العلوم التجريبية فيما بعد أو بمعنى أدق إن هذا المنهج لم يتضح إلا لدى الأشاعرة ، وقد ظهر الأشاعرة بعد جابر بن حيان بزمن طويل . وإنى أميل إلى الرأى بأن جابر بن حيان لم يؤلف سوى « كتاب الرحمة » ، وبعض كتب فى العزائم والنيرنجات ، ثم بعض كتب فى الزهد والمواعظ [٢].

وينبغى أن نلاحظ صلات أصحاب الكيمياء والصنعة بأصحاب الزهد ، والتصوف . وقد ذكرت من قبل رأى ابن خلدون ، ولقد سبق ابن خلدون فى هذا صاحب الفهرست وهو يؤرخ للمعزمين والمشعبذين وأصحاب النيرنجات والحيل والطلسمات ونذكر « أما المعزمون ممن ينتحل الشرائع فزعموا أن ذلك يكون بطاعة الله – جل اسمه ، والابتهال إليه ، والإقسام على الأرواح والشياطين به ، وترك الشهوات ولزوم العبادات ، وأن الجن والشياطين يطيعونهم ، أما طاعة الله جل اسمه ، لأجل الإقسام به – وإما مخافة منه تبارك وتعالى ، ولأن فى خاصية أسمائه ، تقدست ، وذكره جل وعلا – قمعهم وإذلالهم » [٣] فلابد للمعزم – وهو ساحر فى الحقيقة – من العبادة والابتهال وترك الشهوات ، حتى يستخدم أسماء الله ، ومن هنا ظهرت فكرة الاسم الأعظم فى التصوف . [٤]

ويذكر ابن النديم أنه كان لجابر بن حيان تلاميذ منهم الخرقى الذى ينسب إليه سكة الخرقى بالمدينة ، وابن عياض المصرى ، والأخميمى . ونلاحظ أن الأخميمى هذا هو عثمان بن سويد أبو جرى الأخميمى – من أخميم المصرية ، وكان مقدماً فى صناعة الكيمياء – وذكر له بعض الكتب ، ومن بينها كتاب صرف التوهم عن ذى النون المصرى ، وقد كان ذا النون المصرى والصوفى المشهور كيميائيًّا أيضاً وساحراً . كما كان الأخميمى على صلات بابن وحشية وابن وحشية هو أبو بكر أحمد بن

---

(١) ابن النديم الفهرست : ص ٥٠١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست : ص ٥٠١ ، ٥٠٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٢٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٠٠ .

على بن المختار بن عبد الكريم بن جرثيا [١] وكان نبطيًا يتكلم لغة الكسدانيا أى الكلدانية وأطلق عليه اسم الصوفى وقد اشتهر ابن وحشية بالسحر وبالصنعة . ثم كان ممن صحت له الصنعة السائح العلوى – وهو أبوبكر على بن محمد الخراسانى العلوى الصوفى . . . وكان ينتقل فى البلاد ، خوفاً من السلطان [٢] .

ثم تأتى الصوفية الكبار . . . فنجد ذا النون المصرى القفطى . . . « وكان متصوفاً ، وله أثر فى الصنعة [٣] » ويذكر القفطى « ذو النون بن إبراهيم الأخميمى المصرى من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والإشراف على كثير من علوم الفلسفة [٤] » ثم الحلاج . . . وكان رجلاً محتالاً مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصوفية ، ويدعى كل علم ، وكان صفراً من ذلك وكان يعرف شيئاً من صناعة الكيمياء [٥] . ثم نرى صوفيًا شيعيًا وغنوصيًا من الطراز الأول ، وكان معاصراً أيضاً للرازى هو أبو جعفر محمد بن الشلمغانى ، والمعروف بابن أبى العزاقر « كان له قدم فى صناعة الكيمياء [٦] » .

نستطيع أن نصل من هذا كله أن كلمة الصوفى أطلقت أول الأمر على السحرة ورجال الصنعة ، واستمرت تلحق بهم . وكان الصوفى فى أول الأمر هو المعزم والطلسمى وكان صاحب النيرنجات وصاحب الصنعة ثم أطلقت على جميع رواد الحياة الروحية فى الإسلام ، ولكن التعزيم والنيرنجات والطلاسم والصنعة أصبحت « سمة » للصوفية الغلاة ، أو للصوفية الفلاسفة .

ونلاحظ أن المؤرخين يوردون أسماء الفلاسفة القدامى الذين صحت لهم الصنعة ، والفاحص لهذه الأسماء أنهم هم أنبياء الصابئة وحكماؤهم : هرمس وأغاذيمون . . . إلخ . . . ، وهؤلاء دخلوا فى كتب الصوفية الفلاسفة كأقطاب التصوف الأقدمين . وكذلك اعتبر هرمس أيضاً منشئ النيرنجات والطلسمات والتعاويذ والعزائم . . . وكان كما قلت لهذا أثره فى التصوف الفلسفى ، ثم أثر فى التصوف الإشراقى عند السهروردى ومدرسته . وقد تعاطى السهروردى المقتول أيضاً ومدرسته – علوم السحر والطلسمات والصنعة .

---

(١) ابن النديم : ص ٤٣٣ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٥٠٦ .
(٣) نفس المصدر ٥٠٣ ، ٥٠٤ .
(٤) القفطى أخبار الحكماء : ص ١٢٧ .
(٥) نفس المصدر : ص ٢٦٩ .
(٦) القفطى : أخبار الحكماء ص ٥٠٧ .

٢ – الطائفة الثانية : الزنادقة :

كما ظهرت كلمة الصوفى فى الكوفة ، لدى شيعى عباسى ، نراها تظهر أيضاً لدى فرقة نصف شيعية صوفية . ويذكر أن كلمة صوفية ظهرت فى آثار المحاسبى والجاحظ اسماً لها ، وأن آخر شيوخ هذه الفرقة ذات الأصل الكوفى هو عبدك الصوفى البغدادى [١] .

وقد عاش عبدك – كما سنرى فى بحثنا لمدرسة بغداد – فى العاصمة العباسية (وتوفى حوالى عام ٢١٠) وكان أول صوفى فيها فهو إذن من رجال مدرسة بغداد ، وإن كانت صوفيته – كما سنرى بعد – تمثل خصائص مدرسة الكوفة .

ويرى ماسينيون : أن عبدك هو أول من أطلق عليه إسم الصوفى ، وأنه كان يطلق فى ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من الشيعة وعلى مجموعة من الثائرين فى الإسكندرية [٢] . بزعامة رجل أندلسى « يقال له أبو عبد الله الصوفى ، يسفك الدماء ويقتل المسلمين » [٣] . لاشك إذن أن الكلمة كانت معروفة ومنتشرة. عرفت فى الكوفة لدى أوساط غلاة الشيعة ؛ كما عرفت لدى الأندلسيين أيضاً. ولكن من المرجح كثيراً أنها ظهرت كمصطلح فى الكوفة والأمر هنا مواز تماماً لزنادقة الزهاد فى البصرة ، ولم يكن هؤلاء زنادقة بالمعنى المعروف كما بينا فى بحثنا لمدرسة البصرة . وهنا نجد زنادقة الصوفية فى الكوفة ، وسنرى أيضاً أنهم لم يكونوا زنادقة .

٣ – الطائفة الثالثة : الصوفية السنية :

وظهر الاسم «الصوفى» منسوباً إلى أبى هاشم عثمان بن شريك ، وقد اختلف فى أمر أبى هاشم هذا ، هل هو كوفى ، أم شامى ، أم بغدادى ، ومما يرجح أصله الكوفى ، هو أن أهم أقواله ، نقلها إلينا سفيان الثورى – الكوفى – وهو قول « لولا أبو هاشم ما عرفت دقائق الرياء » ، ولكن تكاد تجمع المصادر على أنه كان أمويًّا ، وعاش بالشام ، وبالرملة ، ثم انتقل فى العهد العباسى إلى بغداد . وإنى أفضل أيضاً أن أعرض له فى مدرسة بغداد .

ولاشك أن الكوفة كانت مصدرة للتصوف إلى العاصمة الجديدة ، ومنبعاً للعدد الكبير من رجال الروح الذين انتقلوا منها إلى بغداد . وقد رأينا أن عبدك ، وإن كان من قدماء مشايخ بغداد ، كما قيل

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٢٩٢ .

(٢) الشيبى : الصلة ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ١٨١ .

إلا أنه صدر عن فرقة كوفية ، كما أن أبا هاشم الكوفى قد نشأ فى الكوفة ، كما نعلم أيضاً أن معروفاً الكرخى – من صوفية بغداد الكبار – كما سنرى – أتى إلى الكوفة ، فاستمع لوعظ ابن السماك ، القاضى الكوفى المشهور . . . وكان استماعه إليه ، نقطة التحول فى حياة معروف الروحية .

وعن الكوفة صدرت نماذج الحياة الروحية المختلفة ، النموذج الشيعى الغالى والنموذج الشيعى المعتدل – إماميًّا كان أو زيديًّا ، والنموذج السنى الخالص .

وفى الكوفة فى عهدها الأول اضطرمت الآراء المتباينة وانقدحت فيها . الأفكار الواردة ، وكان بجوارها الأديرة ، وسكن فيها النصارى واليهود ، وأحاط بها الصابئة كما عرف أهلها المندائية والديصانية والمانوية والمزدكية والزرادشتية .

وكان بالقرب من الكوفة – المدائن –موطن الشيعة الغالية ، ومركزاً من مراكز الغنوص .

أطل كل هذا على الكوفة ، ولكن بالرغم من هذا كله كانت الكوفة أصيلة حقًّا فى فكرها وفى تصوفها وفى فقهها . . . ولكن بدأت نضارتها تذهب شيئاً فشيئاً ، وكانت بغداد عروساً مجلوة تطل على الزمان ، وكان على رجال الفكر أن ينتقلوا إليها ، وعلى رجال الروح أن يظعنوا نحوها . وأن يتركوا الكوفة فأخذت تقفر شيئاً فشيئاً ، وها هى بغداد تعيش حتى الآن ، وأصبحت الكوفة مهجورة ، مقبرة للشيعة الاثنى عشرية ، وقرية من قرى النجف ، حيث يرقد الإمام الكبير ، صاحب الروح لدى المسلمين سنة وشيعة ، وقة السلاسل الصوفية ، على اختلاف نزعاتها ومشاربها وعقائدها : على بن أبى طالب .